

قوت القلوب

الدكتور نبيل راغب





الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ، ٣٩٢٠٦١٦(٠٢)

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت:٣٩٣٠٣٥٦، ٥٣٩، ٤٩٤٠ (٠٣)

الطبعة الأولى ٢٠٠١

رقم الإيداع ٢٠٠٠/١٩٠٤٤

الترقيم الدولي ٧ - ٠٥٢٦ - ١٦ - ISBN ٩٧٧

رسوم : يوسف راغب

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

قوت القلوب

- ١ -

كانَتِ الشَّمْسُ تَميلُ إلى الْمَغيبِ وقَدْ تَسَلَّلَتْ بِأَشِعَّتِها الحانِيَةِ عَبْرَ الشُّرْفَةِ الَّتي جَلَسَ فيها هارونُ الرَّشيدُ وأَمامَهُ وَزيرُهُ جَعْفرٌ البَرْمَكيّ الذي كانَ يرصُدُ سُكونَه وحَيرتَه التي وَمضَتْ في عَيْنَيْهِ . لَمْ يَشأْ جَعْفَرٌ أَنْ يَقطعَ حَبْلَ الصَّمْتِ الذي تَعلَّقَ بهِ مَوْلاهُ ، وإنْ كانَ يُدْرِكُ السَّبَبَ في قَلَقه .

فجأةً التَفتَ هارونُ الرَّشيدُ إلى وزيره قائلاً بنبَراتٍ خافِتةٍ لكنَّ السُّكونَ ردَّدَ صَداها : « أَنْتَ تعرفُ ، يا جعفرُ ، أنَّه ليسَ مِنْ طَبْعي أَنْ أُفاتحَ أحدًا في حياتي الخاصَّةِ ، لكنَّ الموضوعَ الذي أُفكِّرُ فيه أَوْشَكَ أَنْ يَخْرُجَ إلى نطاقِ حياتِنا العامَّةِ إذا لم أَكْبَحْ جِماحَهُ . »

قالَ جعفرٌ البرمكيُّ : « وأنا كُلِّي آذان مُصْغِيَةٌ ، يا مَوْلايَ . »

قال هارونُ الرَّشيد : « أنتَ تعرفُ مدى إعجابي

بالمطْرَبَةِ قوتِ القُلوب التي مَلأَتْ ليالِينا أُنسًا وطَربًا ونَشْوةً، لِدرجةِ أَنَّني لم أَعُدْ أَتَصَوَّرُ هذا القصرَ الْمُنيفَ بِدونِها .

« لا أحدَ يُضاهيها في ضَرْبِ الدُّفِّ والعودِ ، والنَّفْخِ في النّاي . أمّا إذا غَنَّتْ فهي تُغَرِّدُ كالبُلْبُلِ في الصُّبْحِ النَّديِّ أو العَندليبِ في اللَّيلِ السّاكِنِ .

« زَوْجتي لم تَعُدْ تحتملُ وُجودَها . . وبدأتْ تُلَمِّحُ ليلةَ أمْس إلى ضرورةِ طَرْدِها مِنَ القصرِ ؛ بحُجَّةِ أنَّ جمالَها السّاحِرَ قادرٌ على أَنْ يُصْبحَ بِئرًا لِلفَسادِ . . وقد أَصْبحتْ تخافُ على ابْنَيْها مِنَ الغَوايةِ . »

ابْتسمَ جَعْفرٌ في حَرجٍ وقالَ : « قَلقُ مَوْلاتي الملكةِ زُبيدةَ – رَعاها اللهُ – مِنْ مُجرَّدِ جاريةٍ لا محلَّ له . . صحيحٌ أنَّ قوتَ القلوبِ رائِعَةُ الجَمالِ ، تَجْذِبُ كُلَّ مَنْ يَراها ، وسُبْحانَ الذي خَلَقها فَسَوّاها . . لكنَّها في الوقتِ نفسِهِ كريمةُ الخِلالِ ، غايةٌ في الأدبِ ،وآيةٌ في الصِّدْقِ والخُلُقِ . »

نَهضَ هارونُ الرَّشيدُ واتَّكأ بمَرْفِقَيْه على حافَةِ الشُّرفَةِ وقدْ تألَّقَ عَقِيقُ خاتَمهِ في ضوءِ الغُروبِ ،وفي لمحِ البَصَرِ كانَ وَزيرُه إلى جوارِه يُراقِبُ مَعهُ الأشِعَّةَ الذَّهبيَّةَ الْمُتراقِصةَ على صَفْحةِ نَهرِ دِجْلَةَ .

هَبَّتْ نَسْمَةٌ حانيةٌ مُعبَّقةٌ بأريجِ الزُّهورِ الْمُتمايلةِ بألوانِها الحمراءِ والصَّفراءِ والبيضاءِ ، لكنَّ الخليفةَ لم يَنْتَعِشْ ، وقالَ : « المرأةُ هي المرأةُ ، يا جعفرُ ، سواءٌ أ كانتْ ملكةً أمْ جاريةً . »

« لكنَّ إعجابَكَ ، يا مَوْلايَ ، اقتصرَ على فَنِّ قوتِ القُلوبِ الْمُغنِّيةِ والعازِفةِ . . وليسَ بقوتِ القُلوبِ الجاريةِ الفاتِنةِ الساحِرةِ . »

« عندما تَسري نارُ الغَيرةِ في عقلِ المرأةِ وتُحرقُ قَلْبَها - فإنَّها لَيستْ على استعدادٍ للاستماعِ إلى صَوْتِ المنْطقِ والحُجَّةِ . »

مَلأَ جعفرٌ عَيْنَيْهِ بِسحْرِ الحديقةِ الْمُمْتدَّةِ أسْفلَ الشُّرْفةِ

حتّى ضَفَّةِ دِجْلَةَ ، وقالَ :

« لعلَّها ، يا مَولايَ ، زوبعةٌ في فنجانٍ سَرعانَ ما تَنْقَشعُ . . والأيامُ كفيلةٌ بتهدئَةِ النُّفوسِ ، خاصَّةً عندما تُدركُ مَولاتي الملكةُ زُبيدةُ أَنَّ قوتَ القلوبِ سَتَظَلُّ مُجرَّدَ جاريةٍ ، وإنْ كانَتْ مَصْدَرًا لِسعادةِ كُلِّ مَنْ في القصرِ ، وعلى رأسهِمْ مَوْلايَ أميرُ الْمُؤمنينَ . »

« فكَّرْتُ في إلغاءِ سَهْرةِ اللَّيلةِ ، لكنْ يَبْدو أَنَّني أَدْمَنْتُ صَوْتَها ولَمْ أَعُدْ قادِرًا على الذَّهابِ إلى الفِراشِ إلا وأَصْداؤُهُ ترِنُّ في أُذُنيَّ . »

« إذا سَمحَ لي مَوْلايَ ، فإنَّ إلْغاءَ السَّهْرةِ يعني أَنَّ شكوكَ الْمَلكةِ في مَحَلِّها . . وفي الوقتِ نفسِهِ فإنَّهُ مِن الأَفضلِ ألا تَردَ سِيرتُها على لِسانِكَ ، يا مَوْلايَ ، أمامَ الملكةِ حتى تَهْدأَ شُكوكُها . . إنَّ قوتَ القُلوبِ مُجرَّدُ جاريةٍ تُسْعِدُكَ بِطَرَبِها وعَزْفِها حتّى تُواصِلَ حَمْلَ مُسئوليَّةِ الخِلافةِ الجسيمةِ . »

بدتْ بَوادرُ ابتسامةٍ رقيقةٍ على وَجْهِ الخليفةِ ، وبُحَّةٌ خافِتةٌ في صَوتِه وهو يقولُ : « أَحْسنْتَ ، يا جعفرُ . إنَّها واحَتي الظَّليلَةُ التي ألجأُ إلَيْها بَعْدَ عَناءِ العَمَلِ . »

ثُمَّ أشْرقَ وَجْهُهُ قائلاً ، وكلِماتُه تَنْضَحُ بِنَشْوةٍ لم يُخْفِها : « نَعَمْ . . سَنَقْضي الليلةَ وكُلَّ ليلةٍ مع سِحْرِ قوتِ القلوبِ . لكنَّهُ سِحْرٌ يَجبُ أَنْ يَكْمُنَ في القُلوبِ ولا يَنْسكِبَ مِن العُيونِ . »

-٢-

في تلكَ الليلةِ لمْ يَغْمُضْ للملكةِ زُبَيْدةَ جَفْنٌ ، وظَلَّتْ تَتَقلَّبُ في فِراشِها وعَيْناها مَشْدودتانِ إلى وَجْهِ زَوجِها الغارقِ في طُمَأْنينَةِ نَوْم هادِئ ، وبَقايا ارْتياح باسِمٍ فَضَحَهُ ضَوءُ الشَّمعِدانِ الذَّهَبيِّ برَغْم خُفوتِهِ . إنَّ أمْواجَ السَّعادةِ التي تَغْمُرُهُ بَعْدَ إنْصاتِه لِغناءِ قُوتِ القُلوبِ ، تَتضاءَلُ أمامَها أيَّةُ سَعادةٍ أُخرى ، حتّى لوْ كانتْ مِنْ

زَوْجَتِهِ الْمَلِكةِ التي تَنْحَني أمامَها كُلُّ الأَعْناقِ . وأَحيانًا تَخْتلِطُ عَليها الأُمورُ فلا تَعْرِفُ مَنْ مِنْهُما الْمَلِكةُ ومَنْ مِنْهُما الجارِيةُ .

أمّا إصْرارُ زَوْجِها على أَنّ إعْجابَهُ بالجارِيَةِ مَقْصورٌ على صَوْتِها وعَزْفِها ، فهو حُبٌّ مُلتهِبٌ تَفْضَحُهُ نَشْوَةُ نَظَراتِه وتَصْفيقُ كَفَّيْهِ وآهاتُ اسْتِحْسانِه . لَقَدْ أحالَتْ هذِه الجارِيَةُ نعيمَ القَصْرِ إلى جَحيمٍ مُقيمٍ . يَكْفي أنَّها الْمَلِكةُ العاجِزةُ عنْ طَرْدِ جارِيَةٍ ، مُجرَّدِ جارِيةٍ ، مِنْ قَصْرِها .

اِسْتَدارَ زَوْجُها في نَوْمِهِ حتّى اقْتَربَ مِنْ حافَةِ الفِراشِ ، فلَمْ تَرَ مِنْهُ سِوى ظَهْرِه ، ولمْ تَسمَعْ سِوى أنْفاسِه العَميقةِ . مَنْ يَدْري ؟ رُبّما كانَ يَحْلُمُ بِها الآنَ . لَعْنةُ اللهِ على مَحاسِنِها ومَفاتِنِها ، وعُذوبةِ صَوْتِها أيضًا . إنَّ القصْرَ يَعجُّ بالجَواري مِن بلادِ الشَّرْقِ القَريبِ والبَعيدِ ، ومِنْهُنَّ الجَميلاتُ اللاتي يَتَمنَّيْنَ نَظرةً مِنْ زَوْجِها ، ومَعَ ذلِك لَنْ

تَهْتَزَّ شَعرةٌ في رَأْسِها إذا امتلكَهُنَّ جَميعًا . أمَّا قُوتُ القُلوبِ فهيَ بُؤْرةٌ تَنْضَحُ بِأشواكٍ وجمراتٍ لا يَنطفِئُ لها لَهيبٌ .

إنّ زوجَها الذي أدارَ لها ظَهرهُ ظَنّا مِنهُ أَنَّ الأمْرَ برُمَّتهِ لمْ يَعُدْ أَمْرَ مَلكٍ ومَلكةٍ ، بلْ أصْبحَ أمْرَ رَجلٍ وامرأةٍ ، ويا لَيْتَها كانتِ امرأةً ذاتَ حَسَبٍ ونَسَبٍ ، بلْ هيَ مُجرَّدُ جاريةٍ ، هَذا الزَّوْجُ الذي تَنْحني أمامَهُ أعْلى الهاماتِ ، أصْبَحَ لُعْبةً في يدِ جاريَةٍ . وقدْ آنَ الأوانُ لكيْ تُعيدَ إليهِ احترامَهُ لِذاتِه ولِعَرْشِه ، ولدَوْلَتِه الْمُترامِيةِ الأطْرافِ . إنَّها لا يُمكنُ أَنْ تَشْعُرَ بالغَيْرةِ - وهِيَ الْمَلِكةُ - مِن جاريةٍ، فَقَدْ تَأكَّدتْ أخيرًا أنَّ غَيْرتَها هِيَ على مَصيرِ الدَّولةِ العبّاسيَّةِ التي دانَ لها الشَّرقُ بأكْملِه . إنَّها مَسْئوليَّةٌ تاريخيَّةٌ جَسيمةٌ ، وتَدْعو اللهَ أَنْ يُساعِدَها على حَمْلِها .

بالأَمْسِ قَبْلَ قَضائِه السَّهْرةَ معَ قُوتِ القُلوب ، سَأَلَها زَوجُها عنِ الْمَقبرةِ الْمَرْمريَّةِ الجميلةِ التي فُوجِئَ بِها مَبنيّةً

في أحدِ أطْرافِ حَديقةِ القَصْرِ وهو يَتجوَّلُ معَ وَزيرِه جَعْفر البَرْمَكيِّ ، فأخبرتْهُ بهُيامٍ اصْطَنَعتْهُ في عَيْنَيْها بأنَّه إذا كانتِ الحياةُ قدْ جمعَتْ بينَهُما في زَواجٍ شَهِدَ عليهِ العالَمُ أجمعُ ، فإنّ الموتَ لا يَستطيعُ أنّ يُفرّقَ بينَهُما أيضًا . وخاصَّةً أنّ المقابرَ الأُخرى هي مَقابرُ العامَّةِ والجَواري .

بَدا في نَظَراتِ هارونَ الرَّشيدِ أَنَّه لمْ يَتَأَثَّرْ بهذا الرِّباطِ الأبَديِّ ؛ إذْ إنَّهُ بَدا في أَبْهى حُلَلِه الْمَصْنوعةِ مِن الحَريرِ الثَّمينِ ، والْمُطرَّزَةِ بالياقوتِ والْمَرْجانِ والعَقيقِ والزُّمُرُّدِ، والْمُشعَّةِ بأَريجِ المِسْكِ والعَنْبرِ ، وقدْ سارَ إلى القاعةِ الْمَرْمَريَّةِ وَسْطَ سَحاباتِ البَخورِ الهِنْديِّ الْمُتَصاعِدِ من الْمَباخِرِ الذَّهبيَّةِ الْمُتراصَّةِ في الأرْكانِ وعِنْدَ الْمَداخِلِ . وعِنْدَ ذَهابِهِ لِلقاءِ قُوتِ القُلوبِ كانَ يَنْسى تمامًا أنَّهُ أميرُ الْمُؤمنينَ والخليفةُ الذي يُحرِّكُ العالَمَ بأُصْبُعِه .

لَيْسَ الأمْرُ بهذِه البَساطةِ التي يَتَصوَّرُها . يَجبُ أَنْ تَرْجِعَ الأمورُ إلى نِصابِها ، ولا يَحِقُّ لزبيدة أَنْ تَحْمِلَ

لَقَبَ الملكةِ وهيَ عاجزةٌ أمامَ جاريَةٍ ، عنْ إنْقاذِ الْمَمْلَكةِ؛ فَلْيَلْهُ زَوجُها الأرْعَنُ ما شاءَ لَهُ اللَّهْوُ ، فاليَوْمَ خَمرٌ وغدًا أمْرٌ ، كَما قالَ الشّاعِرُ القديمُ .

سَرتْ طَلائعُ الاسْتِرْخاءِ في جَسدِ زُبَيدةَ المشدودِ . وتَركَتِ العِنانَ لابْتسامَةٍ عريضةٍ غَطَّتْ وَجْهَها ، ولمْ تَتَصَوَّرْ في يومٍ مِن الأيَّامِ أَنْ تَتَّخِذَ هيَ بنَفْسِها قَراراتٍ يَعْجزُ زوجُها بجَلالةِ قَدْرِهِ عنْ إصْدارِها . لكنّ هَذا هوَ قَدرُها كمَلِكَةٍ ويَجبُ أنْ تكونَ أهلاً لهُ ، فلنْ يأتِيَ اليَومُ الذي يُمكِنُ أَنْ توضعَ فيهِ جارِيَةٌ في كِفَّةٍ ،والْمَلِكةُ بلِ الْمَمْلكةُ بأسْرِها في كِفَّةٍ أُخْرى .

كَم اسْتراحتْ وسَعِدَتِ الْمَلِكةُ زُبَيْدةُ لِبَوادِرِ النُّعاسِ التي تَسلَّلَتْ إلى أجْفانِها . شَعَرتْ أنَّها على وَشْكِ بُلوغِ بَرِّ الأمانِ ، وبالقُوَّةِ نَفسِها التي أَسَرتْ بِها قلبَ هارونَ الرَّشيدِ وعَقْلَهُ في مَطالعِ الشَّبابِ . غداً ستُدْرِكينَ ، يا قوتَ القلوبِ ، أَنَّكِ والعَدمَ سَواءٌ .

جَلَستْ قوتُ القُلوبِ في شُرْفةِ غُرفتِها الصَّغيرةِ وهيَ تَتحاشى النَّظرَ إلى الْمَقْبرةِ الْمَرْمريَّةِ ، التي تُصيبُها بالكآبةِ كُلَّما وقَعتْ عَيْناها عَليها . في البدايةِ لمْ تُدركِ السِّرَّ في إصْرارِ الْمَلكةِ على بنائِها في هَذه الحَديقةِ النَّاطقةِ ببهجةِ الدُّنْيا ، لكنَّها عَلِمتْ فيما بعدُ أنَّ حُبَّها لزوجِها دَفعها إلى الارْتباطِ بهِ في الحَياةِ والْمَوتِ . وعَلَّلَتْ غيرتَها منها بحُبِّها الجارفِ لِزَوْجِها ، وتَمنَّتْ مِن اللهِ أنْ يُديمَ عَليهما نِعمةَ الحُبِّ .

لمْ تُخْفِ قوتُ القُلوبِ سَعادتَها الغامِرةَ بالْمَكانَةِ الأثيرَةِ التي احتلَّتْها في قلبِ الخليفةِ – مَكانةٍ لا تَحلُمُ بها أيَّةُ فتاةٍ ، خاصَّةً إذا كانتْ جاريةً مِثْلَها . وكانَ مِن الطَّبيعيِّ أنْ يُحْرِقَ الحَسَدُ قُلوبَ بعضِ زَميلاتِها مِن الجَواري الأُخْرَياتِ ، خاصَّةً في البدايةِ ، لكنَّهُنَّ اقْتَنَعْنَ فيما بَعْدُ أنَّ وُجودَها بينَهُنَّ قوَّةٌ وفَخْرٌ لَهُنَّ ، وخاصَّةً أنَّها لا تَتأخَّرُ عَنْ خِدْمَةِ مَنْ تَطلُبُ الْمُساعَدةَ مِنْهُنَّ إذا كانَتْ

في اسْتِطاعَتِها .

أمَّا تَجاهُلُ زُبَيْدةَ الكامِلُ لَها فيُمكِنُ أَنْ يَتَلاشى معَ الزَّمَنِ ، وكذلك نَظراتُها الزّاخِرةُ بالضِّيقِ والاحْتِقار عندما تَقعُ على وَجْهِها وهيَ تَصدحُ بأغانيها ، وإصْرارُها على عَدمِ التَّصْفيقِ وَسَطَ الأَكُفِّ الْمُلتهِبةِ به وفي مُقدِّمتِها كَفّا الخليفةِ شَخْصيّا .

لَمْ تَكُنْ قوتُ القُلوبِ تَحمِلُ لها أيّةَ ضَغينةٍ ، لأنَّ قلْبَها لا يَعرفُ سِوى الحُبِّ لكلِّ النّاسِ ، كما أَنَّهُ مِنْ حَقِّ الملكَةِ أَنْ تَسْلُكَ تُجاهَ الآخَرينَ كَما يَتراءى لَها . وقَدْ وَضَعَتْ قوتُ القُلوبِ كُلَّ هذه الاعْتباراتِ في حُسْبانِها حتّى لا تَتجاوزَ حُدودَها ، لِدرجةِ أَنَّها عندما شَعَرتْ بِمَيْلٍ جارِفٍ تُجاهَ عبدِ اللهِ البُستانيِّ الشّابِّ الوسيم المسئولِ عنْ قِسْم الحَديقةِ الذي تَقعُ فيهِ الْمَقبرةُ الْمَرْمريَّةَ التي تُطِلُّ عَليها شُرْفَتُها ، وتَبادَلا النَّظراتِ العابرةَ الْمَليئَةَ بِالمشاعِرِ ، حَرَصَتْ على تَجَنُّبِهِ لإدْراكِها أَنَّهُ الخادِمُ

الْمَفضَّلُ عِنْدَ الملكةِ منذُ أنِ استقدمتْهُ إلى القَصْرِ وهو لا يَزالُ صَبِيّا . ويبدو أنَّهُ كان مِن الذَّكاءِ بحيثُ حَرَصَ على تَبادُلِ النَّظراتِ أو الرَّسائِلِ الصّامِتةِ دونَ أَنْ يَنْبسَ ببِنتِ شَفَةٍ . فالْمَلِكةُ تَعْتَبِرُ كُلَّ مَنْ يَعيشُ في مَعِيَّتها مِن مُمْتلكاتِها الخاصَّةِ ، حتّى لوْ كانَ أميرَ الْمُؤمِنينَ نَفْسَهُ . وإذا كانَتْ قوتُ القُلوبِ قد تربَّعتْ على عَرْشِ الغِناء ، فقدْ تَعَلَّمتْ قَبْلَ ذلكَ أَنْ تَبتعدَ عنِ الشَّرِّ.

خَرجتْ قوتُ القُلوبِ مِن تأمُّلاتِها وذِكْرياتِها على صوتٍ يُنادي عَليها ، صوتٍ لمْ تسمَعْهُ مِن قَبْلُ . بلْ إنَّها لمْ يَخْطِرْ ببالِها أَنْ يَجْرُؤَ أحدٌ على النُّطْقِ باسْمِها بهذا الصَّوتِ العالي تحتَ شُرْفَتِها . هل خُيِّلَ لَها وهيَ غارِقةٌ في خواطِرِها وقدْ جَرفَتْها الْمَشاعِرُ ؟

« قوتَ القُلوبِ ! قوتَ القُلوبِ !»

تَركتْ جلستَها في الشُّرفةِ الرُّخاميَّةِ لِتُطِلَّ مِنَ السُّورِ ؛ فإذا بِها تَجِدُ خواطِرَها وهيَ تَتَجسَّدُ أمامَ عَيْنَيْها . رأَتْ



عبدَ اللهِ وقدْ وَقَفَ شاخِصًا إلَيها بِوجهِهِ الصَّبوحِ وبَريقِ عَيْنَيْهِ العَسَليّتَيْنِ .

« هلْ نادَيْتَ عَلَيَّ ؟»

« أكثرَ مِنْ مَرَّةٍ . »

أضافَتْ دونَ تفكيرٍ : « خيرًا . . إنْ شاءَ اللهُ . »

« جَلالةُ الْمَلِكةِ تُريدُكِ الآنَ في جَناحِها . »

تَساءَلَتْ بِدَهْشَةٍ : « تُريدُني أنا ؟»

« وأرْسلَتْني لاسْتدعائِكِ . »

عَلتْ دَقّاتُ قلبِ قُوتِ القُلوبِ وهيَ تَكادُ ألا تُصدِّقَ ما تَسْمَعُهُ ، كريشةٍ في مَهَبِّ الرِّيحِ ، مِن شُرفتِها إلى حُجرتِها إلى القاعةِ التي هَبَطتْ مِنها على دَرَجاتِ السُّلّمِ الحَلَزونيِّ إلى الحديقةِ ، حيثُ كانَ عبدُ اللهِ في انتظارِها لِتَسيرَ إلى جِوارِه ، في حُلْمٍ لمْ تَعْرِفْ كيفَ تَستيقِظُ مِنهُ .

لمْ تَنْطِقْ بكلمةٍ واحِدةٍ وكذلكَ هو ، لكنَّ دقّاتِ القلبَيْن



أوْشَكَتْ أنْ تَعْلوَ على صَدى هَبّاتِ النَّسيمِ وهُما في طَريقِهما إلى الجَناحِ الرَّئيسيِّ للقَصْرِ السّابحِ بينَ الزُّهورِ ونَفَحاتِ العُطورِ وتَغْريدِ البَلابِلِ .

– ٤ –

جَلَستِ الْمَلِكةُ زُبَيدة في صَدرِ القاعةِ الفِضيَّةِ التي تُطِلُّ شُرُفاتُها على نهرِ دِجْلةَ ، في حينَ اسْتَقرَّتِ الجَواري الحِسانُ عِنْدَ قدمَيْها ، و وَقَفَتِ اثنتانِ مِنهنَّ وقدْ أَمْسَكَتا بمِرْوحتَيْنِ مِن ريشِ النّعامِ يَطْرُدُ قَيْظَ ذلك النَّهارِ عَنْ وَجْهِ الملكةِ ، الذي تَألَّقَتْ عليهِ قَطَراتُ العَرقِ البَلَّوريّةُ ، التي مَسحَتْها الجاريةُ مُرجانةُ بِمنْديلٍ مِن الحَريرِ الأبيضِ وهيَ تَقولُ لمولاتِها :

« لَيْسَ هناكَ أَحَنُّ مِنْ قلبِ مَوْلاتي عَلى كلِّ الذينَ يَتشرَّفونَ بخِدْمَتِها بِما فيهِمْ قوتُ القُلوبِ وعبدُ اللهِ . »

قَالَتْ زُبَيْدَة : « لا تَخْفى عنِّي كَبيرةٌ ولا صَغيرةٌ في

هَذا القَصْرِ ؛ فقدْ رَصدْتُ نَظراتِ الوَجْدِ والهُيام بينَ قوتِ القُلوبِ وعبدِ اللهِ . واستَشعرْتُ خَوْفَهُما وحَرَجَهُما مِن التَّقدُّم خُطوةً جديدةً ؛ فقرَّرْتُ أنْ أقرِّبَ بينَهُما بنَفسي ، فليسَ عِندي أجْمَلُ مِن أنْ يُكَلَّلُ الحُبُّ بالزَّواجِ . »

تَهدَّجَ صوتُ مُرجانةَ وهيَ تقولُ بتأثُّرٍ شديدٍ : « حَفِظَ اللهُ مَوْلاتي ومَتَّعها بالصِّحَّةِ والسَّعادةِ جزاءَ قلبِها المُحِبِّ . »

و واصَلَتْ زُبَيْدَة كلامَها قائِلَةً : « كَما أَنَّني انتهزْتُ فُرصةَ غيابِ أميرِ المؤمنينَ معَ جعفرِ البَرْمكيِّ طوالَ اليوم عنِ القصرِ لِتفقُّدِ أحوالِ الرعيَّةِ في أطْرافِ بغدادَ – فقرَّرْتُ أَنْ أحظى بِالاستماعِ إلى صوتِ قوتِ القُلوبِ السّاحرِ في جلسةٍ نسائيَّةٍ ؛ حتّى تُدركَ أنَّ إعْجابي بِها لا يَقِلُّ إنْ لمْ يَزِدْ عَلى إعجابِ الخليفةِ بِها . »

وقفَ عبدُ اللهِ بالبابِ وخلفَهُ قوتُ القُلوبِ لا تكادُ ترى ما تقعُ عليهِ عَيْناها . وصاحَتْ فيهِ الملكةُ بصوتٍ أزالَ الحَرجَ : « اُدْخُلْ ، يا عبدَ اللهِ ، أنتَ وقوتُ القُلوبِ . »

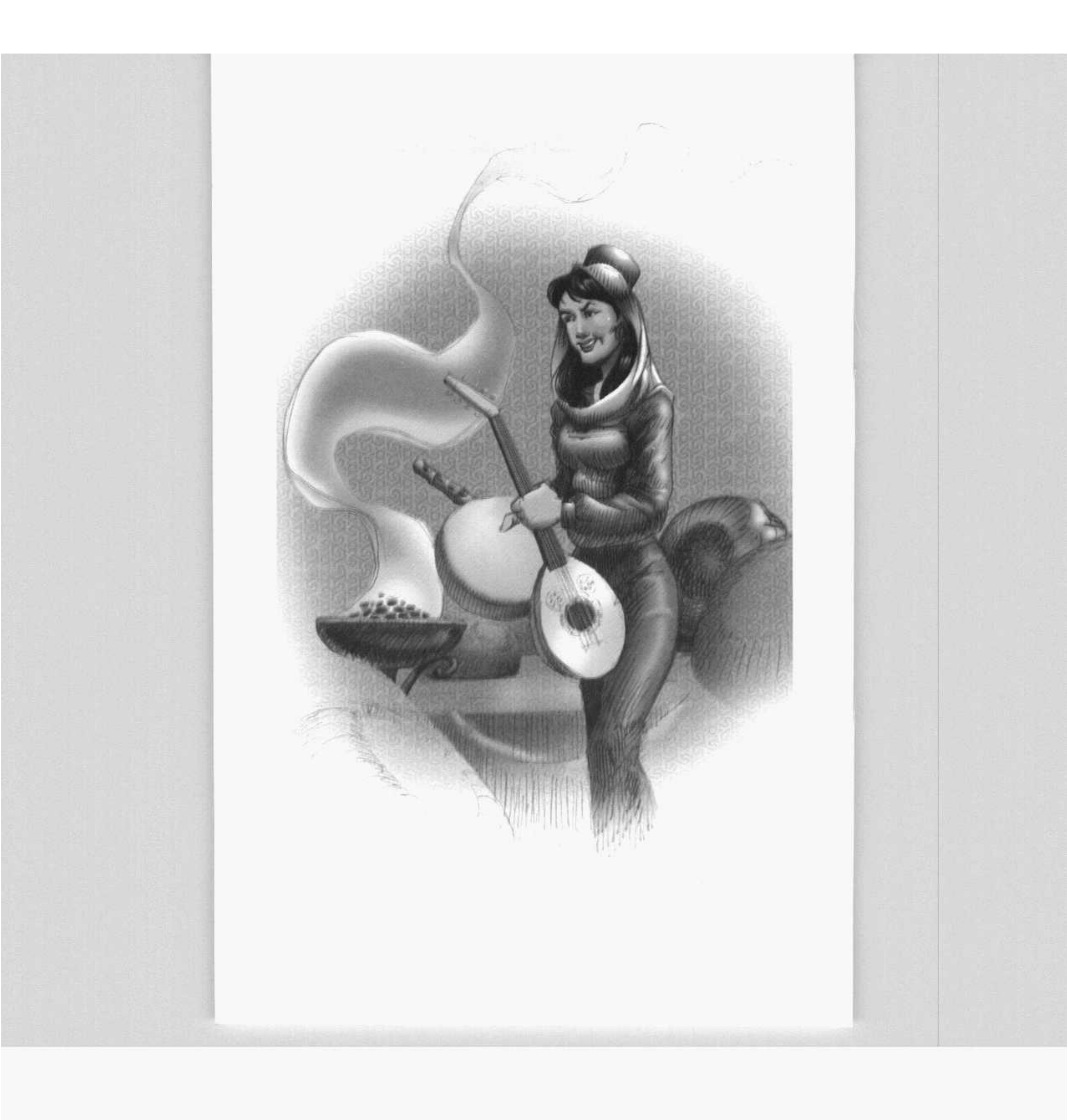
أَسْرعَ عبدُ اللهِ لِينحنِيَ مُقَبِّلاً الأرضَ بينَ يَدي الملكةِ ، وخلفَهُ قوتُ القلوبِ وهيَ تحتَ تَأْثيرِ الحُلْمِ الذي لا تَعرفُ كيفَ تَسْتَيْقظُ منهُ .

نَهضَتِ الملكةُ وأَمْسَكَتْ بيدِ قوتِ القُلوبِ وأَجْلَسَتْها إلى جوارِها . وهَمَّ عبدُ اللهِ أَنْ يَنْصَرِفَ ، لكنَّ الملكةَ قالَتْ لهُ في حَسْم : « اِبْقَ معَنا ، يا عبدَ اللهِ ؛ فأَنْتَ الذي أحضرْتَ قوتَ القلوبِ ، وأنتَ أيضًا الذي ستعودُ بها . »

رَجَعَ عبدُ اللهِ لِيَجلسَ في أوَّلِ مَقعدٍ شاغِرٍ والملكةُ تلتَفِتُ إلى قوتِ القُلوبِ ، وتُربِّتُ عَلى كَتِفها قائلةً في وُدٍّ : « أعتقِدُ أنَّ صوتَكِ السّاحِرَ لمْ يُخلَقْ لِكيْ يَسْتَمْتِعَ بهِ الرِّجالُ فَحَسْبُ . فنحنُ أيضًا لَنا نصيبٌ فيهِ . »

ضَحِكَتِ الْمَلِكَةُ وهيَ تُشيرُ بِيَدِها لمرجانةَ ، التي أَسْرعَتْ إلى رُكنٍ قريبٍ لِتُحضِرَ منهُ الدُّفَّ والنّايَ والعودَ ، وتَضعَها أمامَ قوتِ القُلوبِ التي فاجَأَتْها الملكةُ بتعليقٍ كانَ متوقَّعًا :

« ماذا جَرى لِصوتِكِ؟ لمْ تَتَكلَّمي منذُ أَنْ دَخلْتِ عَلَيْنا . »



تَماسكَتْ قوتُ القُلوبِ وقالتْ بنَبراتٍ مرتَعِشةٍ :

« استدعاءُ مَوْلاتي لي شَرَفٌ لَمْ أكُنْ أَحلُمُ به ؛ ولذلكَ اغْفِري لي ، يا مَوْلاتي ، وَقْعَ المفاجأةِ عليَّ . »

أَطْلقتِ الملِكةُ ضِحْكةً مُتسائِلةً :

« وهلْ سيَحرِمُنا وَقْعُ المفاجأةِ مِنَ التَّمتُّعِ بسِحْرِ غِنائِكِ وعَزْفِكِ ؟»

اسْتَرَدَّتْ قوتُ القُلوبِ تَماسُكَها و وُضوحَ نبراتِها :

« لا حَرَمَنا اللهُ مِنْ عَطْفِ مَوْلاتي وكَرمِها الذي لا يَعْرِفُ حُدودًا . »

« لَنْ نُضيِّعَ الوقتَ في الثَّرثرةِ ونحنُ الآنَ آذانٌ مُصغيةٌ لِصوتِكِ السّاحِرِ وعَزفِكِ الباهِرِ . »

« السَّمعَ والطّاعةَ لِذاتِ الْمَقام الرَّفيع ، والجَنابِ الْمَنيعِ ، زينةِ السُّلالةِ العبّاسيَّةِ التي تَشَعُّ بَهاءً لَيلاً ونهارًا . »

ثمَّ اسْتدارتْ وتَناوَلَتِ الدُّفَّ بأنامِلِها الرَّقيقةِ ، وأخذَتْ

تُغَنّي وهي تَنْقُرُ عليهِ بِبَراعَةٍ مُذْهِلَةٍ ، فَسَرى السِّحْرُ في المسامعِ ، سِحرٌ تمايلَتْ معهُ الملكةُ طَرَبًا وقد أَغْمضَتْ عَيْنَيْها في انتظارِ المزيدِ منهُ ، في حينَ غَمَرَ الذُّهولُ والعرقُ عبدَ اللهِ ، عندَما لمْ يَستطعْ أَنْ يُفرِّقَ بينَ دقّاتِ دُفِّها ودَقّاتِ قلبِهِ .

ظَلَّ جاحِظًا إلَيْها وهيَ تَضعُ الدُّفَّ وتَأخُذُ النّايَ الَّذي نَفختْ فيه ، وأناملُها الرَّقيقةُ تَتراقَصُ عَلى ثُقوبِه الدَّقيقةِ، لِتنْطَلِقَ منه الألْحانُ تُحَرِّكُ الأشْجانَ وتَسْحَرُ الآذانَ ، تُوقِظُ الأحْلامَ وتُحَيِّرُ الأفهامَ .

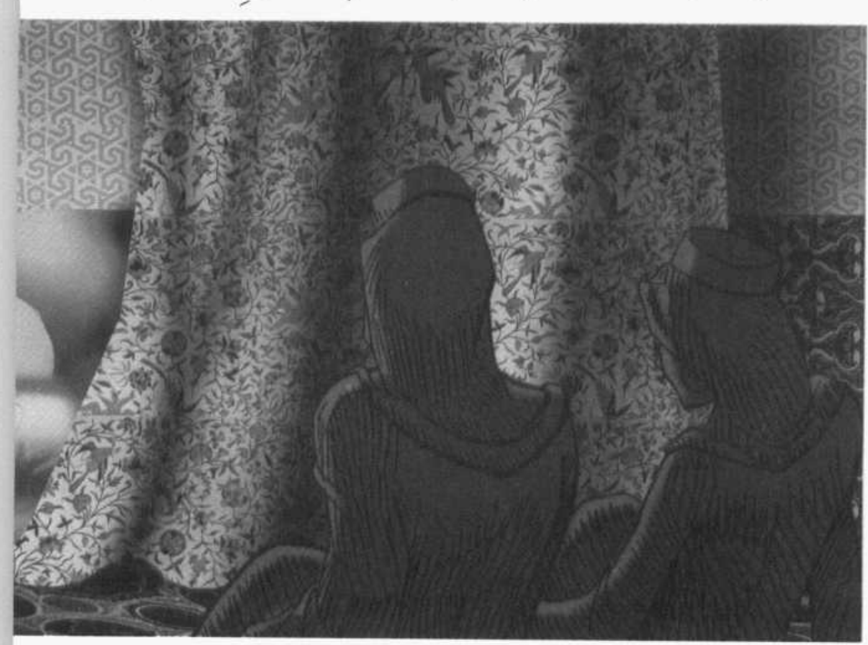
هزَّتِ الأنغامُ أوتارَ القلوبِ، فتنهَّدتِ الصُّدورُ ، وخَفَّ قَيظُ النَّهارِ معَ سَريانِ الحُبورِ ، وارتِخاءِ الجُفونِ ، و وَميضِ العُيونِ وهيَ تُتابعُ قوتَ القلوبِ التي وَضَعتِ النّايَ جانِبًا لِتفتحَ فمَها ، ويَنطلقَ صوتُها العَذْبُ بِالغِناءِ .

لَمْ تملكِ الملكةُ سِوى أنْ تتخلَّى عَنْ وَقارِها وتَصيحَ في نَشوةٍ : « الله الله عَلى سِحْرِكِ ، يا قوتَ القُلوبِ .

لَنْتْرُكَكِ حتَّى تُفْرغي كُلَّ ما في جَعْبَتِكِ . »

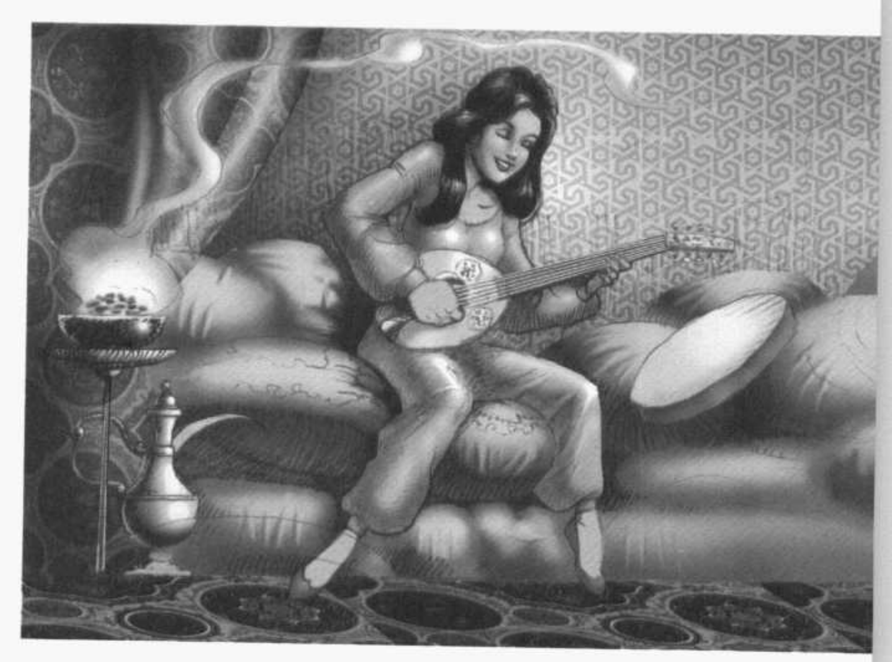
« السَّمعَ والطّاعةَ لِمَولاتي زينةِ الدُّنيا جَمعاءَ . »

ثمَّ أَمْسَكتْ قوتُ القُلوبِ بالعودِ لتُجلِسَهُ في حِجْرِها ، وهيَ تَحْنو عليهِ حُنُوَّ الأُمِّ عَلى وَلَدِها ، وتُداعبُ أوتارَهُ بأناملَ لا تكادُ تَمسُّها . ومعَ ذلكَ سَرتِ الألحانُ في القاعةِ لِتمتزجَ بِعَبَقِ البَخورِ الذي بدأتْ سَحاباتُهُ تتلوَّى في الأركانِ ، وأريجِ الزُّهورِ الذي يَهُبُّ مِن الشُّرفاتِ دونَ نَسماتٍ تَحمِلُهُ ، وصوتِ قوتِ القُلوبِ الصّادحِ المغرِّدِ .



اِستطاعتْ قوتُ القُلوبِ أنْ تَنظرَ في وَجْهِ الملكةِ لِتلمحَ وَميضَ السِّحْرِ في عينَيْها ، فارْتَفعتْ طبقاتُ صوتِها إلى قِممِ الجبالِ ، وغاصَتْ إلى أعماقِ البحارِ ، وطَمَستْ تَغريدَ البَلابلِ التي عادَتْ إلى أعْشاشِها .

ولم تَزلْ قوتُ القُلوبِ ، تَتَفَنَّنُ بالغناءِ والعزفِ ، وتَأْتي بكلِّ ما يَخلُبُ الْمَسامعَ والألبابَ ، حتّى كادَتِ الْمَلِكةُ زُبيدةُ تَنسى غَيرَتها ، وتَتركُ قلبها نَهْبًا لِسحرها وحُبِّها ، وتَتعجَّبُ لِتلكَ الجاريةِ التي بَدَتْ لُؤلؤةً مِن الْمَحاسِنِ والْمَفاتِنِ .



انْتَفضتْ زُبَيدةُ في مُحاولةٍ لِلتَّخلُّص مِن السِّحرِ الطّاغي ، فلنْ تَفعلَ هذهِ الجاريةُ ما فعلتْهُ بِزوجِها مِن قَبْلُ . لقدْ آنَ الأوانُ كيْ تَعْرِفَ حُدودَها .

صفَّقتِ الملكةُ بِكفَّيْنِ مِنْ رَصاصٍ وكأنَّها تُنهي الحفلَ، ثمَّ أشارَتْ إلى بعضِ جَواريها ، فأحضَرْنَ نوعًا فاخِرًا مِن الحَلْوى التي تَشْتهيها ، وطالما تناولَتْها عَلى مائدةِ الخليفةِ . غَرِقتْ قوتُ القلوبِ في بِحارِ الذُّهولِ، وهيَ تَرى الملكةَ تُقَدِّمُ لَها بيدِها قطعةً مِن هذهِ الحَلْوى ، التي لمْ تَذُقْ أجملَ مِنها في حياتِها كُلِّها . وتبادلتْ مَعَها حديثًا حَملَ في طيّاتِهِ مُنتهى إعْجابِ الملكةِ بِفنِّ قوتِ القلوبِ وسِحْرِها الذي لا يُقاوَمُ .

وبَعْدَ ساعةٍ مِن الكلماتِ الدّافِئةِ بالوُدِّ والحُبِّ ، شَعَرَتْ قوتُ القلوبِ برأسِها يَدورُ ، وأجفانِها تَرتَخي ، وبَدتْ في جلستِها وكأنَّها ناعِسَةٌ أو غائِبةٌ عَن الوُجودِ .

لمْ يُدرِكْ عبدُ اللهِ ما دارَ ، ولمْ تُصدِّقْ عَيناهُ منظرَ قوتِ

القُلوب وقدْ تَحوّلتْ إلى تِمثالٍ سقطَ عُنُقهُ عَلى صَدرهِ ، والملكَةُ تأمرُ بحَمْلِها إلى إحْدى المَقْصوراتِ ، وقدْ سارتْ مَعَ الجَواري اللاتي حَمَلْنَها ثُمَّ اختفَتْ معهُنَّ داخِلَ المَقْصورةِ وَسْطَ سُكونٍ رَهيبٍ ، التحفَتْ بهِ القاعةُ الفسيحةُ . ومرّتِ اللّحظاتُ كأنَّها دُهورٌ .

فَجْأَةً دوّتْ صَرْخَةٌ حادَّةٌ ؛ فَانْدَفَعَتِ الجَواري نَحْوَ مَدخلِ المقصورةِ ، وكذلكَ عبدُ اللهِ الذي لمْ يُراعِ أنّهُ الرَّجلُ الوحيدُ بينهنَّ ، فوقفَ عَلى مَقعدٍ خَلْفهُنَّ لِيَرى الملكَةَ تَلطِمُ خَدَّيْها ، وتَصرخُ ، وَسْطَ ذُهولِ الجَواري اللاتي تَحجَّرتْ مَآقيهنَّ عَلى قوتِ القلوبِ المُسجَّاة عَلى مائدةٍ بلا حَراكٍ .

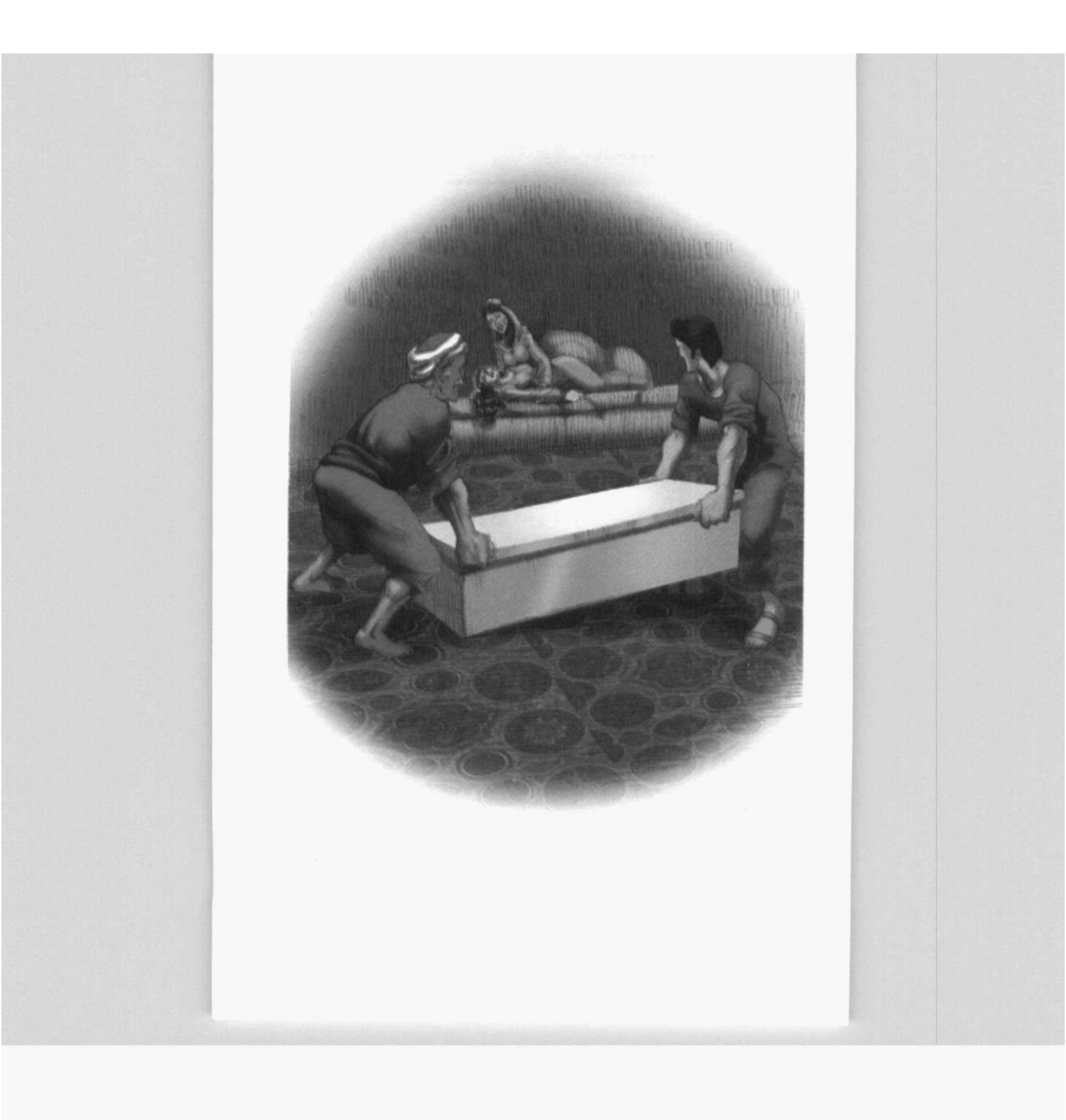
صاحَتِ المَلِكَةُ : « لقدْ ماتَتْ صاحِبةُ أجملِ صَوتٍ في لحظةٍ . لا أحدَ يَعرفُ ماذا جَرى لَها . هلْ تُصدِّقونَ ما تَرونَ ؟ ربَّما أصابَها دُوارٌ أوْ غَيْبوبةٌ . »

سارعَتِ الملكةُ لِهزِّها مرّاتٍ ومرّاتٍ ، تُحاولُ رفعَها ، لكنَّ الرَّأسَ كانَ يَسْقطُ ، وكذلكَ الذِّراعانِ .

قالَتْ مرجانة : « لا جَدوى ! لا فائِدةَ ! لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِاللهِ !»

ولمحتِ الملكةُ عبدَ اللهِ الذّاهِلَ في وقفتهِ عَلى الْمَقعدِ ، فصاحَتْ بِهِ كقائِدٍ يخوضُ معركةً مُميتَةً : « أسرع ، يا عبدَ اللهِ ، إلى الْمَقبرةِ الْمَرمريَّةِ وأَحْضرِ الصُّنْدوقَ العاجيَّ ؛ فهيَ تَسْتَحِقُّ عظيمَ التَّكريم والاحترام. سنَدفِنُها في المقبرةِ التي بَنَيْتُها خِصِّيصًا لي أنا وأميرِ المؤمنينَ . »

كانَ عبدُ اللهِ قد استحالَ تمثالاً مِن حجرٍ، فلمْ يَنْطِقْ ولمْ يَستوعِبْ إلا عِندما صاحَتْ بهِ مرةً أُخرى لِتنفيذِ الأمرِ - فأسرعَ بِالخروجِ مُحاوِلاً مُقاومةَ الكابوسِ الذي جَثمَ عَلى كاهِلِه فأحْنَى ظهرَهُ ، في حينَ تحوَّلتِ المقصورةُ والقاعةُ إلى حَفْلٍ جَنائزيٍّ مِن اللَّطْمِ والنَّدبِ والعَويلِ والنَّشيجِ ، حتّى عادَ عبدُ اللهِ ومَعَهُ بُستانيٌّ كَهلٌ ، ساعَدهُ في حمْلِ الصُّندوقِ الذي فتحتْهُ الجَواري لِيُرقِدنَ فيهِ قوتَ القلوبِ رَقْدتَها الأخيرةَ ، وعبدُ اللهِ صامِتٌ صَمْتَ القبورِ ، لا يُصدِّقُ ما يَرى .



و وَسْطَ الحمَّى التي تَعصِفُ بالجميع صاحَتْ زُبيدةُ بعبدِ اللهِ لِيدُقَّ المساميرَ ؛ حتّى لا يقعَ الغِطاءُ مِنْ عَلى الصُّندوق . كانَ عبدُ اللهِ عَلى وشكِ أنْ يَتساءَلَ ، لكنَّهُ وجدَ نفسَهُ يُمسِكُ بالمطرقَةِ والمساميرِ التي أحضرَتْها الجاريةُ مُرجانةُ ، ويَشْرَعُ في دَقِّها و وَجهُ قوتِ القلوبِ المسجّاةِ داخِلَهُ لا يُفارِقُ مخيِّلتَهُ أبدًا . وسَرعانَ ما انتشرَ الخبرُ في أرجاءِ القَصْرِ وفي قلبِ بغدادَ كالبرقِ في الليلة الظَّلماءِ .

لقدْ تمَّتِ الإجراءاتُ بسرعةِ البرقِ أيضًا ، وسارتِ الملكةُ خلفَ الصُّندوقِ الموضوعِ عَلى عربةِ البُستانيِّ ، وهيَ تُواصِلُ معَ الجَواري اللطمَ والندبَ والعَويلَ ، حتّى بَلغْنَ المقبرةَ المرمريّةَ المفتوحةَ لاستقبالِ الصُّندوق، حيثُ أَشرفَتِ الملكةُ بنفسِها عَلى وضعِهِ داخلَها . وعندَما همَّ عبدُ اللهِ بخلعِ المساميرِ ليُسجِّيَ الجسدَ في التُّرابِ ، نهرتْهُ الملكةُ بصرخَةٍ كأنَّها لَطَمَتْهُ عَلى وجهِهِ :

« إنَّها لَيْسَتْ مِثلَ كُلِّ النّاسِ . ستظلُّ في الصُّندوقِ في الحِفظِ والصَّونِ. لا يُعقَلُ أَنْ يُلقى بِكلِّ هَذا الجمالِ في

التُّرابِ . »

تَراجعَ عبدُ اللهِ إلى الخَلْفِ وشَفتاهُ تتحرّكانِ بكلماتٍ صامِتةٍ . سَمِعَ الأمرَ بغلقِ المقبرةِ فأغلقَها ، ثمَّ وَقفتِ الملكةُ عَلى درجاتِ السُّلَّمِ المرمريِّ قائلةً بصوتٍ مُتهدِّجٍ :

« لا أحدَ يَعرِفُ مَدى الصَّدْمةِ التي سَتُصيبُ أميرَ المؤمنينَ عندَما يعودُ الليلةَ بسلامةِ اللهِ . لكنَّني سأَطلبُ مِنهُ إقامَةَ العَزاءِ أربعينَ ليلةً إلا ليلةً ؛ لعلَّ نارَ القلوبِ تهدأُ ولا أقولُ تَنْطفئُ . »

–٥–

في ظلامِ اللَّيلِ الدامِسِ تألَّقتِ الْمَشاعِلُ المحيطةُ بِمَوكبِ هارونَ الرشيدِ في عودتِهِ مِن أطرافِ بغدادَ إلى قصرِهِ . جَلسَ في مقصورتِهِ الحريريَّةِ التي تَجرُّها الجيادُ المطَهَّمَةُ ، وإلى جوارِهِ وزيرهُ جعفرٌ البرمكيُّ . بَدا الإرهاقُ عَلى وَجْهِ الخليفةِ لكنَّ السَّعادةَ نَضَحتْ عَلى نَبراتِهِ وهو يَقولُ :

« كانَ يومًا سعيدًا ومُوفَّقًا . حمدًا للهِ وشكرًا . »

« حَنانُ مولايَ على فقراءِ شعبهِ لَيْسَ لهُ حدودٌ . كانتْ فرحتُهُمْ بالمساكنِ التي بُنِيتْ لهمْ بلا حدودٍ . ظَلَّتْ أَلْسِنتُهمْ طوالَ اليوم تلْهَجُ بالدُّعاءِ لمولايَ . . حفظكَ اللهُ حِصْنًا ومَلجأً لِكلِّ المحتاجينَ والفُقراءِ . »

« لَيْسَ هناكَ ، يا جعفرُ ، خطرٌ يُهدِّدُ الدَّولةَ مِثلُ اتِّساعِ الفجوةِ بَينَ الفقراءِ والأغنياءِ . . بينَ مَنْ يموتونَ مِن المجاعَة ومَنْ يموتونَ مِنَ التُّخَمةِ . »

« لكنَّهُ كانَ يومًا مُرهِقًا لمولايَ . »

« بمُجرَّدِ أنْ يَنْعقِدَ السّامِرُ وتَصدحَ قوتُ القُلوبِ بصوتِها - يَزولُ الإرهاقُ ويَتلاشى ، كالظَّلام عندَما يَسْطعُ القمرُ في اكتمالِهِ . . فهيَ البدرُ عندَما تطلُعُ علَيْنا . . وهيَ الشَّمْسُ عندَما تُغنِّي . . وهيَ الثُّريّا عِندَما تعزفُ . إنَّ صوتَها السّاحِرَ ، يا جعفرُ ، يَغسِلُ رُوحي ونَفْسي مِنْ كُلِّ الشَّوائبِ التي تَعْلَقُ بِهما مِنْ عواصِفِ

الحياةِ التُّرابيَّةِ والرَّمليّةِ . »

« لكنْ مِن الخَطَرِ أَنْ تسمعَ مَوْلاتي مثلَ هَذا الإطراءِ . »

« لقدْ عَمِلْتُ بنَصيحتِكَ بالفعل ، يا جعفرُ . لمْ أَعُدْ أذكرُها أمامَها لا بخيرٍ ولا بشرٍّ . »

« حِكمةُ مولايَ لا تَخْفى على أحدٍ . »

بَدتْ معالِمُ قصرِ الرَّشيد وقِبابُه غارِقةً في ظلامِ تلكَ الليلةِ التي غابَ عَنْها القمرُ . انقبضَ قلبُ الرَّشيدِ وتَساءَلَ والموكبُ يقتربُ مِن الأَسْوارِ الرُّخاميَّةِ :

« ما هَذا الظَّلامُ الدّامِسُ ؟ أَيْنَ أضواءُ المشاعِلِ والثُّريّاتِ والشَّمْعداناتِ ؟ أَغيبُ يومًا عَن القصرِ فأرجعُ لأجدَهُ مُلتفًا بِهذا السَّوادِ الكالِحِ . »

ثمَّ نظرَ خارجَ مقصورتِهِ وصَفَّقَ بيديْهِ :

« فلْيُعلِنْ نافخُ البُوقِ وُصولَنا . »

دوَّى البوقُ ، والمقصورةُ الملكيةُ تَتهادى مِنَ البّوابةِ

الرئيسيَّةِ مُخترقةً الممرَّ الحجريَّ صَوْبَ القصْرِ ، في حينَ قالَ جعفرٌ البرمكيُّ :

« مولايَ هو نورُ القصرِ ونورُ الدَّولةِ كلِّها . . وها قدْ عادَ النورُ بنفسِهِ لِيتلألأَ القصرُ بهِ . »

كانَ جعفرٌ على وَشْكِ أَنْ يضحكَ للتَّخفيفِ مِنْ وَطأةِ الكآبة المفاجِئَةِ ، لكنَّهُ كَبَتَها عندَما لمحَ الجهامةَ في عينَي الرَّشيدِ الشّاخِصتَيْنِ إلى القصرِ ، الذي بلغَ مدخلَهُ المرمريَّ ، الذي انطلقَتْ منهُ الجاريةُ مرجانةُ لتقبِّلَ الأرضَ بينَ يدي الرَّشيدِ وهوَ يَصْعَدُ عَلى درجاتِ السُّلَّمِ ، قائِلةً لهُ بِصوتٍ مبحوحٍ :

« حمدًا للهِ عَلى سلامتِكَ ، يا أميرَ المؤمنينَ . »

ثُمَّ انفجرَتْ باكِيةً فامتزجَتِ الكآبةُ بِالمرارةِ في قلبِ الرَّشيدِ : « ماذا جَرى ؟ وأَيُّ شيءٍ يُبكيكِ ؟ »

فلَمْ تُجِبْ مُرجانةُ وبكاؤُها يتحوَّلُ إلى نَحيبٍ ،

فانطلقَ الخليفةُ إلى الداخلِ وخلفَهُ جعفرٌ ومُرجانةُ ؛ لِيجدَ كُلَّ مَنْ في القاعةِ الفضيَّةِ التي تتراقَصُ فيها ذُبالةُ شَمعدانٍ هزيلٍ ، وهُمْ يَبْكونَ حولَ الملكةِ زُبيدةَ الدامِعةِ .

اِنْقبضَ قلبُه ، وارْتَجفَ بَدنُه مِنْ جُرعةِ المرارةِ التي جَرَتْ في عروقِهِ والغيظِ الْمُتَفَجِّرِ لِسكوتِ الجميعِ وكِتْمانِ ما يُبكيهمْ عَنْهُ ، فصاحَ بزوجتِه : « واللهِ ، لَئِنْ لَمْ تُخبِريني بِما حدثَ لأضربنَّ أعناقَ الجميعِ . »

نظرَتْ زوجتُه خلفَ دُموعِها المنهمِرةِ ولمْ تَفْتَحْ شَفَتَيْها المرتَعِشتيْنِ ، فسارعَتْ مرجانةُ إلى تبديدِ الصَّمتِ الرَّهيبِ :

« اِعلمْ ، يا مولايَ ، أَنَّ الجاريةَ قوتَ القلوبِ قد غَنَّتْ لَنا صباحَ اليومِ ما شاءَ لَها الغِناءُ ، ثمَّ تناولَتِ الحَلْوى التي كانتْ تُحِبُّها ، فإذا بِها تَشْرَقُ وتُصابُ بِغُصَّةٍ في حَلْقِها ، فماتَتْ لِساعَتِها . وقدْ أَبَتْ مَولاتي الملكةُ زُبيدةُ إلا أنْ تقومَ بِالواجِبِ وزيادةٍ ؛ فخصَّصَتْ لَها المقبرةَ الجميلةَ

التي كانتْ قدْ أعَدَّتْها لَكُما بعدَ عمرٍ طويلٍ مديدٍ ، وأشْرفَتْ بنفسِها عَلى تجهيزِها ودَفنِها . »

لمْ يُصدِّقِ الرَّشيدُ ما سمعَهُ : هلِ انتهَتْ قوتُ القلوبِ هَكذا في لحظةٍ عابرةٍ غادِرةٍ ، بعدَ أنْ كانَتْ تملأُ الدُّنيا طَربًا وسعادةً ونشوةً ؟

تَذكَّرَ أنَّهُ أميرُ المؤمنينَ ، وعليهِ أَنْ يتماسَكَ . وأَوْحَتْ إليهِ حُنكَتُهُ السِّياسيَّةُ أَنَّ الأمْرَ لا يمكنُ أنْ يكونَ بهذهِ البساطةِ . لكنَّ الدُّنيا ضاقَتْ في عيْنَيْهِ وهوَ يتأمَّلُ نَظراتِ زوجتِهِ الدّامِعةَ التي حاولَتْ أَنْ تُنكِّسَ رأسَها فلمْ تَستطعْ .

أَوْشَكَ مُخُّهُ عَلى الانْفجارِ ، لكنَّ الدُّموعَ أَسْعَفَتْهُ فرطَّبتْ وَجْنَتيْهِ الْمُلتَهِبتَيْنِ ، واستدارَ ليذهبَ إلى قبرِها حيثُ أَمْضى ساعاتٍ يَبْكي وَيَنْتحبُ ، في حينَ حاولَ عبدُ اللهِ الذي كانَ يقفُ خلفَهُ أنْ يحكِيَ لهُ تفاصيلَ ما وقعَ وأثارَ ريبتَهُ وحَيْرتَهُ ، لكنَّ لسانَهُ عَجزَ عنْ الانطلاقِ مِنْ عِقالهِ .

وعندَما هَدَّهُ الحزنُ وأنْهكهُ التعبُ غادرَ المقبرةَ مترحِّمًا عَلىٰ مَنْ فيها . وبرغمِ شدةِ حاجتهِ لِلرّاحةِ والنَّومِ في تلكَ الليلةِ الليلاءِ ، فإنَّهُ لمْ يَذُقْهُ لِلحظةٍ واحِدةٍ ، أمّا زوجتُهُ فظلَّتْ تُواسيهِ تارةً وتَبكي تارةً أخرى وتَستعِدُّ تارةً ثالثةً لأسئلتهِ المفاجِئَةِ التي خَبرَتْها طويلاً . لكنَّهُ كانَ قد استسلمَ تمامًا لِشُرودِهِ الحزينِ والمريرِ ، لدرجةِ أنَّها حقدَتْ عَلى قوتِ القلوبِ التي ذهبتْ بلا رَجْعَةٍ .

لم تكُنْ تُدْرِكُ أَنَّ حُبَّهُ لَها كانَ قد بلغَ هَذا الحدَّ .

فالْمُستلقي مَشدودًا إلى جوارِها ليسَ أميرَ المؤمنينَ الذي يُديرُ الدُّنيا بإشارةٍ مِن إصبعِهِ ، بلْ عاشِقٌ مكلومٌ لا يَعْرِفُ كيفَ يُداوي جِراحَ قلبهِ النّازفِ .

-٦-

قَبَعَ عبدُ اللهِ على درجاتِ السُّلَّمِ أمامَ بابِ المقبرةِ في

ظلامِ تلك الليلةِ التي لا تريدُ أنْ تَنْقشعَ . لمْ تكنْ نوبةُ حراستِهِ هَذه المرَّةَ حافِلةً بأطيافِ قوتِ القلوبِ التي كانتْ تُضيءُ لَيلَهُ ، بل زَخرتْ بأشباحٍ هائمةٍ لا تَعرفُ لِنفسِها مَقَرًّا . لم يُخَفِّفْ مِنْ وَطْأةِ الحزنِ والكآبةِ والمرارةِ التي تكادُ تُزهِقُ أنفاسَهُ ، سِوى استرجاعِهِ لأحداثِ اليومِ الرَّهيبِ ، مُنذُ اللحظةِ التي نادى فيها عَلى قوتِ القُلوبِ وهيَ جالِسةٌ في شُرفتِها ، حتّى دَفنَها في المقبرةِ .

إنَّ جَمراتِ الشَّكِّ والرِّيبةِ التي تزدادُ اشتعالاً وتوهُّجًا في قلبِهِ ، جَعَلَتْ صورةَ قوتِ القلوبِ المفاجِئةَ وقدْ سقطَ رأسُها عَلى صدْرِها ، ثُمَّ وجْهها الشاحِب وهيَ مُسجّاةٌ في الصُّندوقِ ، لا تُفارِقُ بَصيرتَهُ . بعدَها تَنْهالُ الجَمراتُ عَلى رأسِهِ و وَجْهِه عندَما يَستعيدُ إصْرارَ الملكةِ عَلى دَقِّ غِطاءِ الصُّندوقِ بِالمساميرِ ، وكأنَّها خائفةٌ مِن أنْ يَسْرِقَها أحدٌ ، أوْ أنْ تَفْتحَ الصُّندوقَ وتَخرُجَ مِنْهُ .

عِندئذٍ انْتفضَ عبدُ اللهِ واقِفًا كمَنْ لدغَتْهُ عقربٌ . كَمْ

تَمنَّى أَنْ يَفْتَحَ قلبَهُ لأميرِ المؤمنينَ ؛ لعلَّهُ يَقْطعُ الشَّكَّ باليقينِ ، لكنَّ لسانَهُ لمْ يُسْعِفْهُ . ولماذا لا يَقطعُ الشَّكَّ باليقينِ الآنَ بنفسِهِ ويَدْخلُ المقبرةَ ويَفتحُ الصُّندوقَ ؟ سَيرى كُلَّ شَيْءٍ في ضوءِ الشُّعلةِ الذّابلةِ عِنْدَ البابِ ، والتي سَيَدخلُ بها لعلَّها تُخفِّفُ مِنْ كابوسِ المهمَّةِ المرعِبةِ التي شَرَعَ في تَنفيذِها ، والتي تَقْشعِرُّ لَها الأبدانُ .

لمْ يُطلِقِ العِنانَ لِلتَّفكيرِ حتّى لا يخافَ أو يتراجعَ ، أَمْسَكَ بالشُّعلةِ بأصابعَ مِنْ حديدٍ ، وفتحَ البابَ لِيجدَ الصُّندوقَ مُغلقًا في مكانِهِ . دارَ حولَهُ عِدَّةَ دَوْراتٍ لعلَّهُ يَلْحظُ شيئًا يؤكِّدُ شُكوكَهُ الغامِضةَ الهائِمةَ ، لكنَّ طيّاتِ الصَّمْتِ والسُّكونِ كانَتْ قَدْ أَطْبَقتْ عَلى الكونِ .

خَمدتْ قُشعْريرةُ الخوفِ وتَساءَلَ : لماذا لا يَقضي الليلةَ كُلَّها إلى جوارِ حَبيبتهِ لِيودِّعَها الوداعَ الأخيرَ ، بعدَ أَنْ حَرمتْهُ الدُّنيا مِنْ وُجودِها الحيِّ السّاحِرِ ؟

جَلسَ عَلى نُتوءٍ مَرْمريٍّ أمامَ الصُّندوقِ بَعْدَ أنْ وَضعَ الشُّعلةَ في ثَقبٍ بالجدارِ ، ثُمَّ أَطْلقَ العنانَ لِقلبهِ الملتهبِ ، وانْخَرطَ في بكاءٍ طويلٍ حتّى بَلَّلَ الغِطاءَ بدموعهِ المنهمِرةِ في سُخونةٍ خَفَّفتْ بعضَ الشيءِ مِن لَواعِجهِ .

رَدَّدَتْ جُدرانُ المقبرةِ نشيجَهُ الذَّبيحَ ، لكنَّهُ فجأةً سمعَ صوتًا مثلَ ذلكَ الذي يُحدِثُه الفأرُ في انطلاقِهِ مِنْ جُحْرٍ إلى آخَرَ . جَفَّفَ دُموعَهُ وأرهَفَ السَّمْعَ ، فأدركَ أنَّ خيالاتِهِ وهَواجِسَهُ قدْ أصبْحَ لَها صوتٌ . فَكَّرَ في الرَّحيلِ لكنَّ الصَّوْتَ الخافِتَ الغامِضَ البعيدَ تردَّدَ مرةً أُخرى . كانَ قدْ نَسِيَ عَزمَهُ عَلى فَتْحِ الصُّندوقِ قبلَ دُخولِه المقبرةَ؛ فأمسكَ دونَ تفكيرٍ بالقضيبِ الحديديِّ الذي ربطَهُ في خاصِرَتِه ، وشَرَعَ في رَفْعِ الغِطاءِ بكُلِّ قوَّتِهِ ، ومِنْ كُلِّ جانبٍ حتَّى تَخَلْخَلَ أخيرًا ، بَعْدَ أَنْ غامَ في عيْنَيْهِ اللَّتينِ احمرَّتا بمُلوحةِ عَرَقِه الْمُتَصَبِّبِ مِنْ جَبينهِ .

رفعَ الغِطاءَ فكادَ قلبُه أنَ يتوقَّفَ رُعبًا . كانتْ عَيْناها



مَفْتوحَتيْنِ بلْ وتَتَحرّكانِ في مَحْجرَيْهِما . صَدرتْ عنهُ صرخةٌ مكتومةٌ :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ ! بِسمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ ! »

ثُمَّ أَغْرقَهُ طوفانُ الرُّعبِ عندَما أَمْسكتْ بجانِبَي الصُّندوقِ في وَهَنٍ ، وكأنَّها تَسْتَجمعُ كُلَّ قُوَّتِها ، حتّى اسْتوَتْ جالِسةً ، فسقطَ عبدُ اللهِ على ظَهرِهِ ، وهوَ يَصيحُ :

« يا ساتِرُ يا ربِّ ! يا ساتِرُ يا ربِّ ! إنسٌ أَمْ جنٌّ ؟ »

جاءَهُ صَوتُها مِنْ غَياهِبِ السُّكونِ والوَهَنِ والرُّعبِ :

« أَيْنَ أنا ؟ ماذا جَرى لي ؟ أَيْنَ أنا ؟ ما هَذا المكانُ ؟ »

إنَّهُ صوتُها الحبيبُ ! حُلمٌ هَذا أمْ عِلمٌ ؟ قوتُ القُلوبِ لمْ تَمُتْ ؟ مَنْ يُصدِّقُ هذا بَعْدَ الذي جَرى ؟ انتفضَ عبدُ اللهِ واقِفًا ودقّاتُ قلبِه تَطْغى عَلى كلماتِه ونظراتِه الْمُحدِقةِ فيها ، وصاحَ :

« حمدًا للهِ ! حَمدًا للهِ ! »

ثمَّ مدَّ يدَهُ المرتعِشةَ لِيُمسِكَ بيدِها ويُخرِجَها مِن الصُّندوقِ وهيَ تَهتزُّ وَهْنًا وضعفًا ، لِتجلسَ إلى جوارِهِ عَلى البروزِ المرمريِّ :

« ماذا جَرى لي ، يا عبدَ اللهِ ؟ ما هَذا الصُّندوقُ الذي كُنتُ نائمةً فيهِ ؟ هلْ أنا في مقبرةٍ ؟ وأينَ هذهِ المقبرةُ ؟ ومَن الذي فَتحَ هَذا الصُّندوقَ لأخرجَ مِن كابوسِ الظَّلامِ إلى وَهَجِ الشُّعلةِ ؟»

أَحاطَ كَتِفَيْها بذراعِهِ اليُمنى وقد تَهدَّجَ صَوتُه :

« ما جَرى لكِ ، يا قوتَ القلوبِ ، لا يَخطِرُ ببالِ أحد . أ تتذكَّرينَ آخِرَ لحظةٍ كُنتِ فيها واعِيةً لكُلِّ ما يدورُ حولَكِ ؟»

قَدحَتْ زِنادَ فِكرِها في حينَ تقَوَّسَ حاجِباها وقالَتْ :

« بَعْدَ أنِ انْتهيْتُ مِن الغناءِ والعزفِ وتلقِّي الإعجابِ الغامِرِ ، قدَّمتْ لِيَ الملكةُ بيدِها قطعةً مِن الحَلوى الشَّهيَّةِ ، وبَعْدَ حديثٍ ذي شُجونٍ ، لمْ أشعُرْ بشيءٍ . لقدْ

غِبتُ عَن الدُّنيا أوْ غابتِ الدُّنيا عَنِّي . »

« الحمدُ للهِ ! الحمدُ للهِ ! قضاءٌ أَخَفُّ مِنْ قَضاءٍ . وَضْعُ المخدِّرِ في الحَلْوى أرحمُ ألفَ مرَّةٍ مِن وَضْعِ السُّمِّ . »

« أ لِهذا الحدِّ كانَتْ تَكرهُني وتَحقِدُ عَليَّ ؟ »

« ما جَرى لمْ يَعُدْ يَهُمُّ الآنَ . . لا بُدَّ أنْ نفكِّرَ فيما يُمكنُ أَنْ يَجريَ . »

رَبَّتَتْ على يَدهِ في حنان دافِق وقالَتْ : « لقدْ أَنْقذْتَ حَياتي ، يا عبدَ اللهِ . كيفَ أَرُدُّ لَكَ هَذا الجَميلَ ؟ »

« لا بُدَّ أَنْ نُخبرَ أميرَ المؤمنينَ بِحقيقةِ ما جَرى . »

« لَيْسَ الأمرُ بهَذه البساطةِ ، يا عبدَ اللهِ ؛ فَمَنْ أَرادَتْ أَنْ تَدفِنَني بالحياةِ لنْ تَرحَمَني حتّى لوْ وَقَفَ أميرُ المؤمنينَ في صفِّي . أنتَ لا تَعرفُ الزَّبانِيَةَ الذينَ يَعملونَ لحسابِها . يَكْفيها مُرجانةُ الجاريةُ التي تَقْتُلُ القتيلَ وتَسيرُ في جنازتهِ . »

« إذاً ، لَيْسَ أمامَكِ سِوى أَنْ أُخفيَكِ عنِ الأعْيُنِ حتّى

نُفكِّرَ في تُؤَدَةٍ . . ومَنْ يَدري ؟ ربَّما أَتَتِ الأيّامُ بما يجعلُ الأمورَ تَتَّضحُ وتُساعِدُنا عَلى اتِّخاذِ القرارِ السَّليمِ . »

« عَيْنُ العقلِ . لكنْ كيفَ يَتمُّ هَذا ؟ إنَّ خُروجَ جَملٍ مِنْ ثَقبِ إبرةٍ أَيْسرُ مِنْ خُروجِ أيِّ شَيْءٍ أَوْ أَيِّ إنسانٍ مِنْ بَوّاباتِ القصْرِ دونَ أَنْ يَعرِفَ الحُرّاسُ هُويَّتَهُ . فما بالُكَ لوْ كانَ هَذا الإنسانُ قدْ سَبَقَ لهُ أَنْ ماتَ قبلَ ذلكَ ؟ »

ضَحِكتْ لأوّلِ مرَّةٍ فشارَكَها ضَحِكَها وهُوَ لا يَزالُ عاجزًا عنْ تصديقِ ما يَجري . كثيرًا ما سَمِعَ في طفولتِهِ وصِباهُ عنِ الأساطيرِ ، لكنَّهُ لمْ يَحْدُثْ أَنْ عاشَ إحْداها مِنْ قَبْلُ . أجابَها في نشوةٍ غامِرةٍ :

« أ نَسيتِ أَنَّني بُستانيٌّ وعَلَيَّ أَنْ أَجْمعَ كُلَّ صباحٍ الورقَ الأصْفرَ المتساقِطَ مِنَ الشَّجرِ ، والورودَ الذّابلَةَ ، في جُوالٍ أَحْمِلهُ عَلى عَربتي الصَّغيرةِ ، التي أَدفَعُها خارجَ بوّاباتِ القصرِ ، وأنا أَتبادلُ التَّحيَّةَ معَ الحرّاسِ الذينَ يَتمنَّوْنَ لي يومًا سعيدًا ؟ »

« تمامًا مثلُ اليومِ الذي قضَيْناهُ في مَعيَّةِ الملكةِ . »

ظَنَّ أنَّها جادَّةٌ لكنَّ ضحكتَها جعَلَتْهُ يُداعِبُها قائلاً :

« لكنَّ الملكةَ وضَعتْكِ في صُندوقٍ فاخرٍ مُبطَّنٍ بالحريرِ . أمَّا أنا فسأضعُكِ في جُوالِ القُمامةِ . »

« وهلْ لديكَ مكانٌ يمكنُ أنْ أختَفِيَ فيهِ ؟ »

« لي جَدَّةٌ تعيشُ في كُوخٍ جميلٍ عَلى ضِفافِ دِجْلةَ ، لكنَّه بعيدٌ كُلَّ البُعْدِ عنِ القصرِ . سَترعاكِ بكُلِّ الحُبِّ والحَنانِ ، وسأزورُكِ مِنْ حينٍ لآخَرَ إلى أنْ يَفرِجَها اللهُ - سُبحانَهُ وتَعالى - مِنْ حيثُ لا نَدْري . »

« إياكَ أَنْ تَتْرُكَني بِمُفرَدي في هَذهِ الْمَقبرةِ حتّى الصَّباحِ . »

ضَحِكَ قائلاً : « وهَلْ هُناكَ حُلْمٌ أَجْملُ مِنَ البقاءِ معَكِ حتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ ؟ »

قالَتْ في دَلالٍ : « لكنَّني أشعُرُ الآنَ بأنيابِ الجوعِ تَنهَشُ أَمْعائي . »

ضَحِكَ بِدَوْرِهِ وقالَ : « لمْ يَقُلْ لكِ أحدٌ أَنْ تَنامي مِنَ الظَّهيرةِ حتَّى مُنتصَفِ الليلِ . »

لَكَزَتْهُ بِكُوعِها قائِلَةً : « هلْ يَستطيعُ أحدٌ أَنْ يَعصِيَ أوامِرَ الملكةِ ؟ »

« مَعَ أوَّلِ شُعاعٍ لِلْفَجرِ سأُحْضِرُ لكِ بعضَ التُّفّاحِ . »

ولمْ يتَوقَّفِ الحديثُ الشَّهِيُّ بينَهُما حتّى مَطلَعِ الفَجْرِ .

-٧-

كانتِ الملكةُ زُبَيدةُ تَظُنُّ في أوَّلِ الأَمْرِ أَنَّها حَقَّقَتْ أَقْصى سعادَتِها عِندَما تخلَّصَتْ مِن كابوسِ قوتِ القُلوبِ الذي كانَ يُطْبِقُ عَلى أَنْفاسِها . لكنَّها لمْ تَكُنْ تَتصوَّرُ أبدًا أَنْ يَتَحوَّلَ الكابوسُ في حياةِ قوتِ القُلوبِ بَعْدَ موتِها إلى جَحيمٍ للملكةِ . كانَتْ صورةُ وَجْهِها وهيَ مُسجّاةٌ في الصُّندوقِ تُطارِدُها في صَحْوِها ومَنامِها ، لِدرجةِ أنَّها

شَعَرتْ بها ذاتَ مرَّةٍ وهيَ تَدخلُ عَليها مُحاولةً خَنْقَها ، فصرَخَتْ لتُفيقَ لِنفسِها ويَتلاشى الشَّبحُ .

في حَياةِ قوتِ القُلوبِ كانَ الرَّشيدُ يَحرصُ على مُداعَبَةِ زُبَيْدَة والتَّوِدُّدِ إلَيْها ، وكأنَّهُ كانَ يُغطِّي عَلى إعجابهِ الجنونيِّ بقوتِ القُلوبِ حتّى تَتَغاضى عنهُ . أمّا بَعْدَ موتِها فقدْ تَساقَطتِ الكلماتُ فيما بينَهُما ، ورانَ الصَّمتُ الكَئيبُ ، ونَطقتِ النَّظراتُ بتَساؤُلاتٍ شائِكةٍ ومُلتهبةٍ ، ضاعفَتْ مِنْ وَخْزِ الضَّميرِ وسَعيرِ النَّدَم ، لِدرجةِ أنَّها تمنَّتْ عودةَ الزَّمنِ إلى الوراءِ ، وعودةَ قوتِ القُلوبِ إلى الحياةِ ، ولْيُعجَبْ بها زَوجُها كَما يَشاءُ . ذلكَ أفضلُ مِنْ أنْ تَجدَ نَفْسَها قاتلةً ومُخضَّبَةَ اليديْنِ بدماءِ الضَّحيَّةِ .

ماذا جَرى لَها حتّى تتركَ نفسَها تحتَ وَطْأةِ الغَيْرةِ القاتِلةِ ، التي قَتَلَتْها قَبْلَ أنْ تَقتُلَ قوتَ القلوبِ ؟

يَبدو أنَّها نَسيَتْ أنَّها زوجةُ هارونَ الرَّشيدِ الخليفةِ وأميرِ المؤمنينَ ، الذي يَسوسُ بحكمتِه وحُنْكتِه ودَهائِه وجَبروتِه دولةً مُترامِيةَ الأطْرافِ ، هيَ قلبُ العالَمِ ونبضُهُ الحيُّ . هلْ

يَجوزُ عليهِ الكلامُ الذي سَمِعَهُ عَنْ مَوْتِ قُوتِ القلوبِ ؟ هلْ يُمكنُ أَنْ تموتَ بهذِه البَساطةِ وهيَ التي كانَتْ تملأُ الدُّنيا حياةً وبشْرًا وحُبًا ؟ هلْ كانَتْ غَيْرتُها مِنْها خافِيةً عَليهِ وهُو الذي يرى ما لا يراهُ الآخَرونَ ، حتّى الجالسونَ بالقربِ منْهُ عَلى القمَّةِ ؟ هلْ تُوحي نظراتُهُ الصّامِتةُ إلَيها بأنَّها ستعترفُ بحقيقةِ ما جَرى إنْ آجلاً أوْ عاجلاً ، وهوَ الذي يَقْرأُ العقولَ كأنَّها كُتُبٌ مفتوحةٌ ؟ إنَّها تتجنَّبُ نَظراتِهِ حتّى لا تَفْضحَها عَيْناها ، أو يخونَها لِسانُها . لكنْ إلى متى ؟ أ لَيْسَ في استطاعَتِها أَنْ تُفلِتَ مِنْ هَذا الجحيمِ الذي تَتصاعدُ أَلْسنتُهُ المتأجِّجةُ يومًا بَعْدَ يَوْمٍ ؟

لا . . إنَّها لَنْ تَعترفَ حتَّى لو انطبقتِ السَّماءُ عَلى الأرضِ . ما فعلتْهُ كانَ مِنْ أَجلِ زوجِها والأُمَّةِ بأسْرِها . لماذا يُجبرُها ضميرُها عَلى تحويلِ البُطولةِ إلى جريمةٍ ؟ سَتدوسُ عَليهِ بخُفِّها الذَّهبيِّ الرَّقيقِ حتّى تُزهِقَ أنفاسَهُ وتَكتُمَ هَمساتِهِ المسعورةَ . لوْ كانَ إنسانًا لدسَّتْ لهُ السُّمَّ أَوْ حتّى المخدِّرَ ، وأَلْقَتْ بهِ في صُنْدوقٍ مِنْ رَصاصٍ في قاعِ

دِجلةَ - صُندوقٍ كُلُّهُ ثُقوبٌ حتّى لا يَطفُوَ عَلى السَّطْحِ أبدًا . لكنْ هَيهاتَ . كانَ عَليها أَنْ تَقتُلَهُ أوّلاً قبلَ أَنْ تَقْتلَ قوتَ القلوبِ . لكنَّهُ ظَلَّ صامتًا وساكِنًا وكامِنًا تحتَ وَطأةِ نيرانِ الغيرةِ وشِواءِ جَسَدِها ونَفْسِها ، وعِندَما خَبتِ النِّيرانُ داخِلَ الصُّندوقِ معَ قوتِ القلوب ، أَشْعَلَ جَمراتِهِ وفَرَشَ أشواكَهُ حتّى يُدْمِيَ رُوحَها قبلَ أنْ يُدْمِيَ قدمَيْها .

لمْ تتصوَّرِ الملكةُ زُبيدةُ أنَّها ستمرُّ بلحظاتٍ مُعتِمةٍ تَحقِدُ فيها عَلى قوتِ القُلوبِ في نومِها المريحِ في مَقبرتِها المرمريَّةِ الفاخِرةِ ، كما حَقَدتْ عَليها في حياتِها المتوهِّجةِ لِوَلَهِ زوجِها بها .

الآن تَتَذكَّرُ كلمةَ زوجِها لَها ذاتَ مرَّةٍ عِندَما قالَ إنَّ الحقدَ نارٌ تأكلُ صاحِبَها إذا لمْ تَجدْ ما تأكُلُهُ . كانَ يعرفُ كُلَّ ما يَدورُ بداخِلِها ، وربُّما يَعْرِفُ الآنَ تفاصيلَ ما جَرى دونَ أَنْ يُخْبِرَهُ أحدٌ ، مُفضِّلاً أَنْ يَتركَها تَحترِقُ بنارِ نَدمِها ويَأسِها ، وضَياعِها ، مِنْ أَنْ يُحرِقَها هو بنارِ غضبِهِ وانتقامِهِ .

النَّهارُ أوْشَكَ عَلى أَنْ يَنْتصِفَ ولا تزالُ الملكةُ زُبيدةُ

راقِدَةً في فِراشِها ، وحيدةً معَ خواطِرِها الْمُعتِمةِ ، بَعْدَ أَنْ طَردتْ كُلَّ الجَواري اللاتي حاولْنَ الاطمئنانَ عَليها ، بما فيهنَّ مُرجانةُ التي كانَتْ لصيقةً بِها طوالَ ساعاتِ النَّهارِ .

لا تريدُ أَنْ تَرى أوْ تُخاطبَ أحدًا أوْ تَتناولَ الفطائِرَ والشَّطائِرَ والحَلْوى التي عَشِقَتْها . آهِ لوْ ضَرَبَها زوجُها أوْ حتّى قتلَها ؛ لَكانَ هَذا أفضلَ وأرحمَ ألفَ مرَّةٍ مِنْ مَوتِها مِئاتِ المرّاتِ في اليومِ الواحِدِ . لَمْ يَتبادَلْ معَها سِوى كلماتٍ قليلةٍ مُقتَضبَةٍ ، ختمَها بِجملةٍ لا تعرفُ مَقصِدَهُ مِنها حتّى الآنَ ، حينَ قالَ لَها في مرارةٍ ممزوجةٍ بسُخريةٍ خفيَّةٍ : « لمْ أكُنْ أعرِفُ أنّكِ كنتِ تُحبِّينَ قوتَ القلوبِ إلى هَذا الحدِّ . »

ثُمَّ انهمكَ في إدارةِ أمورِ الدَّولةِ ، وتَفقُّدِ أحوالِ الرَّعيَّةِ ، والغِيابِ عَنْ قصرِه أطْولَ مُدَّةٍ مُمْكِنَةٍ ، وكأنَّهُ لمْ يَعُدْ يَحتملُ الحياةَ فيهِ بِدونِ قوتِ القُلوبِ .

عاشَتْ قوتُ القلوبِ أيّامًا كالحُلْمِ في كوخِ جَدَّةِ عبدِ

اللهِ ، وأدركَتْ أنَّ السَّعادةَ يُمكنُ أنْ تَتَسلَّلَ مِن القُصورِ لتَسْكُنَ الأكْواخَ . كانَتْ مُحاطَةً بأشجارِ التُّفّاحِ والبُرتقالِ ، ومُحاطةً أيضًا بقُلوبِ الجيرانِ الدّافِئةِ الْمُحِبَّةِ في جلستِهِمْ في الكوخِ حولَ الجدَّةِ صَفيَّةَ ، يُنْصِتونَ إلى القِصصِ وسِيَرِ الأبطالِ والأساطيرِ .

وكَمْ تَمنَّتْ قوتُ القلوبِ أَنْ تُغَنِّيَ لهُمْ وتُسعِدَهُمْ بِصَوْتِها السّاحِرِ ، لكنَّ عبدَ اللهِ حَذَّرَها مِنْ مَغبَّةِ ذلكَ . لكنْ إلى مَتى تَظلُّ هاربةً ومُخْتَفِيةً ، ومُتنكِّرةً هَكَذا ؟



صحيحٌ أنَّها تَستمتعُ بزيارةِ عبدِ اللهِ لَها كُلَّ أُسبوعٍ أوْ كُلَّما حانَتْ لهُ الفرصةُ ، لكنَّها لَمْ تُجْرِمْ في حقِّ أَحدٍ حتّى تُنكِرَ نَفْسَها بِهذا الشَّكْلِ ، وهيَ المطربةُ والعازِفةُ التي كانتْ بَهجةَ أميرِ المؤمنينَ نَفْسِه .

« فيمَ شَرَدْتِ ، يا حَبيبتي ؟»

جاءَها صوتُ الجدَّةِ وهيَ مُنهمِكةٌ في صُنعِ فَطيرةٍ على لوحٍ خَشبيٍّ داخِلَ الكُوخِ . استَدارتْ قوتُ القلوبِ



باسِمةً وهيَ في جِلسَتِها عندَ البابِ وأَجابَتْ : « أتأمَّلُ النَّهْرَ والأشْجارَ والأزْهارَ وكُلَّ النِّعَمِ التي أَبْدعَتْها يدُ الخالِقِ سُبحانَهُ وتَعالى . »

ضَحِكَتِ الجَدَّةُ وهيَ تُسوِّي الفَطيرةَ عَلى سَطحِ فُرنٍ مَعدِنيّ : « لا تَقْلَقي ، يا قوتُ ، عَلى عبدِ اللهِ . فإنَّ وُصولَهُ كُلَّ جُمعةٍ لَيْسَ محدَّدًا بِساعَةٍ مُعيَّنَةٍ ، ولا يَزالُ في الوقتِ مُتَّسَعٌ قبل صلاةِ الجُمُعَةِ . »

« أخافُ أَنْ يُصيبَهُ أذًى مِن الملكةِ زُبيدةَ . »

« اللهُ هوَ الحافِظُ . »

« ونِعْمَ باللهِ . »

« لا تَتَصوَّري ، يا حَبيبتي ، كمْ أنا سعيدَةٌ بكِ . لكنَّ حُبِّي يُحَتِّمُ عليَّ أَنْ أُصارِحَكِ بأنَّ الاختفاءَ لا مَعنى لَهُ ، فلا يُعقَلُ أَنْ يكونَ كُلُّ همِّكِ في الحياةِ إسعادَ النّاسِ ، ويكونَ جَزاؤُكِ الموتَ أوِ النَّفْيَ . »

« مَعكِ ، يا جَدَّتي ، لا أشعُرُ بأيِّ نَفْيٍ أَوْ غُربَةٍ . »

« لكنَّ لِقاءَنا هوَ لِقاءٌ عابرٌ بينَ الماضي والْمُستقبَلِ . وهوَ لا يَعني أَنَّهما سَيسيرانِ جَنبًا إلى جَنبٍ . »

« مَتَّعَكِ اللهُ بالصِّحَّةِ والعافِيةِ وطولِ العُمُرِ . »

أَخذتِ الجدةُ الفَطيرةَ السّاخِنةَ مِنْ عَلى سَطحِ الفُرنِ ، وذَهبَتْ لِتجلسَ إلى جِوارِ قُوتِ القلوبِ ، وتُقَدِّمَها إلَيْها وهي تَحتضِنُها بيُمْناها :

« ها هِيَ فَطيرةُ العسلِ والتُّفّاحِ التي تُحِبِّينَها . »

« لَيْسَ لي شَهيَّةٌ . »

نَظرتِ الجدَّةُ صَوْبَ الأفُقِ ، وقدِ ارتَسَمتِ ابتسامةٌ عريضةٌ عَلى تجاعيدِ وَجْهِها السَّمْحِ وهيَ تَقولُ :

« الآنَ ستكونُ لكِ أعظمُ شَهيَّةٍ في الدُّنيا . »

شاركَتْها النَّظرَ إلى الأُفقِ فوجدَتْ عبدَ اللهِ قادِمًا في لهنةٍ ، لكنَّهُ كانَ يتلفَّتُ مِنْ حينٍ لآخَرَ خَلفَهُ وحَولَهُ

بطريقةٍ غريبةٍ ، وهوَ الذي كانَ يَسيرُ كالسَّهْمِ لا يَلْوي عَلى شَيءٍ .

نَهضتْ في لَهفةٍ وهُرِعَتْ لِلتَّرحيب بهِ وتُمسِكُ بيدِهِ في حَنانٍ دافِق ، في حينِ كانتِ الجدَّةُ تَرصدُهما بِعيْنَيْنِ تَلمعانِ بالدُّعاءِ لهُما بسعادةٍ يَسْتحِقّانِها .

قالتْ وهيَ تَحتضنُهُ بعينَيْها : « قَتلَني الخوفُ عليكَ عندَما تأخَّرْتَ عَلى غيرِ عادتِكَ . »

« كِدْتُ ألا أَحضُرَ اليَوْمَ ، لكنَّني خَشيتُ عليكُما مِن الأفكارِ السَّوداءِ . »

هَمَّتْ أَنْ تَسألَهُ وهواجسُ قلبِها تُطارِدُها ، لكنَّهُ أسرعَ لِيُمسِكَ بيدِ جَدَّتهِ ويُقبِّلَها بحرارةٍ ، فاحتضنَتْهُ وقَبَّلَتْ جَبينَهُ ، وجَلَسَ ثُلاثَتُهمْ بأنفاسٍ مُتهدِّجَةٍ ، ونَظراتٍ مَلهوفةٍ ، وإلحاحِ قوتِ القُلوبِ المتسائِلِ : « هلْ كانَ هُناكَ ما يمكنُ أَنْ يمنعَكَ مِنَ الحُضورِ ؟ »

تَدفَّقتِ الكلماتُ عَلى لسانِه كَأَنَّهُ يريدُ أَنْ يَسْتريحَ مِن

حملٍ ثقيلٍ أرْهَقَ كاهلَهُ مسافةً طويلةً : « فَجْرَ أَمْسِ اسْتيقظتُ مُنْتشيًا بعدَ أَنْ حَلَمْتُ بكِ ، كَما أَنَّهُ لمْ يكُنْ قدْ تَبقَّى لي سِوى يومٍ واحدٍ ثمَّ أزورُكِ الزِّيارةَ التي أحلُمُ بِها طوالَ الأُسبوعِ . انْهمكْتُ في عَملي بِالحديقةِ . . جَمْعتُ الأوراقَ الصَّفراءَ والفُروعَ الجافَّةَ والزُّهورَ الذّابلةَ في الجُوالِ ، ثمَّ شَرعْتُ في رَيِّ المِنطقةِ الواقِعةِ أمامَ الْمَقبرةِ . وعِندَما تذكَّرْتُ تفاصيلَ ما جَرى ؛ استخفَّني الطَّربُ فَغنَّيْتُ إحْدى أغانيكِ التي تدورُ حولَ الشَّوْقِ والهَوى والعِشْقِ ، وإذْ بسؤالٍ يَصْطَكُّ بأُذنيَّ كأنَّهُ سَهْمٌ أَصابَ ظَهْري : ‹‹ ما كُلُّ هذا الطَّربِ أمامَ المقبرةِ ؟››

« استدَرْتُ لأجِدَ الخليفةَ شخصيّا وفي مَعيَّتِه الوزيرُ جعفرٌ البرمكيُّ . »

شَهقَتْ قوتُ القُلوبِ وهيَ تَدُقُّ بكفِّها عَلى صَدرِها : « أ لمْ نَتَّفِقْ عَلى أَنْ تَبدُوَ حَزينًا كَسيفَ البالِ حتّى لا يَشُكَّ في أمرِنا أحدٌ ؟»

« مهما أكُنْ ، يا قوتُ ، فأنا بَشَرٌ مِنْ لَحْمٍ ودَمٍ . »

لمْ تُخْفِ جَدَّتُهُ لَهْفَتَها وهيَ تَسْألُهُ : « الْمُهِمُّ . . ماذا جَرى بعدَ ذلكَ ؟ »

« تَلَعْثَمْتُ وتَردَّدْتُ واعتَذَرْتُ وتَأَسَّفْتُ وتَعلَّلْتُ بأنَّ الانهماكَ في العملِ أَنْساني وَقارَ المكانِ. لكنْ يَبدو أَنَّ الخليفةَ لمْ يَقْتَنعْ وتبادَلَ نَظراتٍ غريبةً ومُحيِّرةً معَ وَزيرِهِ ، ثُمَّ سارَ كِلاهُما وهُما يَتبادلانِ كَلِماتٍ هامِسةً ، مَنعني رُعْبي المرتعِشُ من التِقاطِها ، حتّى بَلَغا سُلَّمَ الْمَقبرةِ ، و وَقَفا أمامَها في خُشوعٍ واضِحٍ ، في حينِ ظَلِلتُ مَكاني كَصَنَمٍ لمْ يَتحرَّكْ إلا عِندَما عادا أَدْراجَهُما ، وأنا مُنْحنٍ أكادُ أُقَبِّلُ الأرضَ بينَ أيديهِما . »

« هلْ هَذا هو السَّبَبُ في عَزْمِكَ عَلى عَدمِ الحضورِ اليومَ ؟ »

سَأَلَتْهُ قوتُ في حيرةٍ ضاعَفَها رَدُّه عَلَيْها : « شَعَرْتُ طَوالَ أمْسِ بِأنَّ العُيونَ أَصْبحَتْ تَرصُدُ حَرَكاتي : الحُرّاسُ

والجَواري والخَدمُ والطُّهاةُ. وهَذا الصَّباحَ بَعْدَ أَن انْتَهيْتُ مِن عَملي في الحَديقةِ وحَصَلْتُ عَلى إذْنِ الزِّيارةِ الأُسبوعيَّةِ لأُسْرَتي - خَرجْتُ منَ القصرِ سائرًا عَلى قَدميَّ ؛ فلمحْتُ اثنيْنِ مِنَ الحَرسِ السِّرِّيِّ في أَعْقابي .

« فكَّرْتُ في العودةِ لكنْ سَرعانَ ما عَدلْتُ عنِ الفكرةِ حَتّى لا أُثيرَ الشُّبُهاتِ . ربَّما كانَ الأمرُ كُلُّهُ بمَثابةِ سُوءِ ظَنٍّ ، لكنَّ المتابعةَ أو المطاردةَ تَواصَلتْ وإنْ كانَتْ في أشكالٍ مُختلِفةٍ . كانَ كُلُّ هَمِّي أَنْ أتخلَّصَ منهما . وسَرعانَ ما هَداني تَفْكيري إلى تَضليلهِما في الحَواري والأَزِقَّةِ وَسْطَ الباعةِ والشَّحّاذينَ والحُواةِ والمارَّةِ ، لكنْ بلا فائدةٍ .

« عِنْدئذٍ مَرَرْتُ بالعَمِّ عبدِ العزيزِ ومَكثْتُ في بيتهِ نصفَ السّاعَةِ للزِّيارةِ والاطمئْنانِ عَلى صحَّتِهِ - فقد كُنتُ أَعْرفُ أَنَّ في بيتهِ بابًا آخَرَ للخُروجِ مِنَ النّاحيَةِ الشَّرقيَّةِ ، وكانَ هَذا البابُ هُوَ طَوْقُ النَّجاةِ الذي أَمْسَكْتُ بهِ حتّى وَصلْتُ إلى هُنا دونَ مُطارَدةٍ . »

صَمَتَ ليلتقطَ أنفاسَهُ المبهورةَ ، فقالَتِ الجَدَّةُ بحَسْمٍ :

« أ لمْ أَقلْ لَكُما مِنْ قبلُ إنَّه لا يَصِحُّ إلا الصَّحيحُ ؟ العدالةُ الإلهيَّةُ التي أنْقذَتْ قوتَ القُلوبِ منَ الموتِ ، قادِرةٌ عَلى مَنْحِ كُلِّ ذي حَقٍّ حقَّهُ . الدُّنيا ليْسَتْ فَوْضَى كما تَظُنُّ الملكَةُ زُبيدةُ ، كما أنَّكُما لَنْ تَستَطيعا الهروبَ والاختفاءَ إلى الأبدِ مِنْ وَجْهِ الخليفةِ وعيونِه . أَنْتُما لا تَعرِفانِ بَطْشَهُ بمَن يَظُنُّ أَنَّهُ قادِرٌ عَلى الاستهانةِ بذكائِه . »

عَلَّقَتْ قوتُ القُلوبِ قائِلَةً دونَ أَنْ تُواجِهَ جَدَّتَها بنظراتِها : « لم يَخطِرْ هَذا ببالِنا عَلى الإطْلاقِ . . كُلُّ ما أَردْناهُ فُرصةٌ لالْتِقاطِ الأنْفاسِ والتَّفكيرِ بدونِ تَسرُّعٍ . »

وَمَضَ الإِصرارُ في عَيْنَيْ عبدِ اللهِ وقالَ : « وماذا يُمكنُ أَنْ تَفعلَ الملكةُ زُبيدةُ لِقوت عِندَما تَكْتَشِفُ أنَّها عَلى قيدِ الحياةِ ؟ لا بُدَّ أنَّ انْتِقامَها هذِه المرَّةَ سَيكونُ أعْنَفَ وأَبْشَعَ وأَخْبَثَ أَلْفَ مَرَّةٍ . »

« حياةُ قوتِ القُلوبِ في يدِ اللهِ – سُبْحانَهُ وتَعالى –

يَفعلُ بها ما يَشاءُ ، ولَيْسَتْ بيدِ الملكةِ زُبيدةَ . كَما أَنَّ الخليفةَ سيكونُ لهُ مَوقفٌ آخَرُ تمامًا عِنْدَما يَعْلمُ بتفاصيلِ ما جَرى . وكُلُّها حَقائقُ لا يَستطيعُ إنْكارَها أحدٌ . »

تَرَدَّدتْ قوتُ القلوبِ ثمَّ نَطقَتْ بنَبراتٍ مَبْحوحةٍ : « إعلانُ هذِه الحقائقِ ، يا جَدَّتي ، لَيْسَ بِالأمرِ السَّهْلِ . »

« كُلُّ شَيءٍ في أوَّلهِ صَعْبٌ ، لكنَّ اللهَ يُسَهِّلُ الأمورَ لِعبيدهِ . »

تساءَلَ عبدُ اللهِ في مَرارةٍ : « وهَلْ تَعتقِدينَ أَنَّ الخليفةَ سيُسانِدُ جاريةً ضدَّ زوجتِهِ الملكةِ ؟ السُّلطانُ لهُ حِساباتٌ أُخْرى لا نَعْرِفُها ، ولنْ آخُذَ قوتَ القُلوبِ بيديَّ إلى الموتِ مرَّةً أُخرى . »

تَصاعَدَ الإصْرارُ في نَبراتِ الجَدَّةِ وهي تَقولُ : « إحساسُكَ بالذَّنْبِ لا مَعنى لهُ . لقدْ نَفَّذْتَ أمرَ الملكةِ لِتُحضِرَ قوتَ القُلوبِ لِلغِناءِ في الحفلِ . وهلْ كُنْتَ تَعلمُ ما يَدورُ في عَقلِها ؟ »

« لا . . لَنْ أفعلَ هَذا مرَّةً أُخرى . سَنهرُبُ مَعًا إلى آخِرِ أطْرافِ الأرضِ. لا أستَطيعُ التَّفكيرَ في حَياتي لحظةً واحِدةً بِدونِ قوت القُلوبِ »

نَهَضتِ الجدَّةُ لإحضارِ الفَطيرةِ الأُخرى ، التي أَوْشَكتْ أَنْ تَحترِقَ في الفُرنِ ، وهِيَ تَقولُ :

« العَبْدُ في التَّفكيرِ والرَّبُّ في التَّدبيرِ ، وأَنْتما تُحاوِلانِ التَّفكيرَ والتَّدبيرَ في آنٍ واحِدٍ . مَنْ يَّتكِلْ عَلى اللهِ لا يَخِبْ أبدًا . »

-٨-

أَصابَ الهُزالُ الملكةَ زُبَيدةَ فأصبحَتْ شَبحًا يَتجوَّلُ في أرجاءِ غُرفةِ نومِها . لَيْسَ لدَيْها شَيْءٌ تَفعلُه سِوى البُكاءِ والأنينِ والإضْرابِ عَنِ الطَّعامِ ، والخليفةُ صامِتٌ صَمْتَ القُبورِ . كانَتْ تَصْطلي في لَياليها المُعتِمةِ الطَّويلةِ بِنيرانِ النَّدمِ والأرَقِ والمَرارةِ ، إلى أَنْ أتَتْ لَيلةٌ انْفجرَ

فيها البُركانُ : كانَتْ تَتظاهَرُ بالنَّوم عَلى حافَةِ الفِراش ، لكنَّها لمْ تكُنْ تُدركُ أَنَّ زوجَها يَتظاهرُ بالنَّومِ أيضًا ، لأَنَّها عندما نادَتْ عليهِ انْتصبَ جالِسًا مُتسائِلاً :

« هلْ نَويْتِ أخيرًا التَّخلُّصَ مِن الجَمَراتِ التي تُحرِقُ قلبَكِ ؟ »

جَلسَتْ بِدَورِها لِتَنْطلِقَ كَلماتُها كَحُمَم مِنْ فُوَّهَةِ بُركانٍ : « كانَ لا بدَّ أَنْ أقُصَّ عليكَ كُلَّ ما جَرى يومَ وَفاةِ قُوتِ القلوبِ . . لكنْ لِكُلِّ شَيْءٍ أوانٌ . »

« وأنا كُنتُ في انتِظارِ هَذا الأوانِ . »

« بِالطَّبعِ لا يَخفى عليكَ غَيْرَتي القاتِلةُ مِنْ إعْجابكَ الْمُفرِطِ بقوتِ القلوبِ . ظلَّتْ نيرانُ الغَيرةِ تَتصاعدُ داخِلي حتَّى أَحْرقَتْني ؛ فَطاشَ صَوابي ، وقَرَّرْتُ التَّخلُّصَ مِنها ومِن الجَحيمِ الذي صَنعتْهُ لي - فانتهَزْتُ فُرْصَةَ ذَهابكَ لِتفقُّدِ المساكِنِ الجديدةِ التي أقمْتَها لِلفُقراءِ في أطْرافِ بغدادَ ، ودعوْتُها لِلغناءِ . وبَعْدَ أَنْ أجادَتْ

وأبدعَتْ وتَألَّقَتْ كعادَتِها - قَدَّمْتُ لَها بِيَدي قِطعةً مِنَ الحَلْوى التي كانَتْ تَعشَقُها ، بَعْدَ أنْ دَسَسْتُ فيها مُخدِّرًا قويّا . وعندما غابَتْ عَن الوَعْي تمامًا ، أعلنْتُ موتَها الذي تَأكَّدَ مِنهُ الجميعُ ، وأَمَرْتُ عبدَ اللهِ بإحضارِ صُندوقٍ كانَ في المَقبرةِ المَلكيَّةِ ؛ حتّى يُدركَ الحاضِرونَ مَدى إعْزازي لَها وحُزْني عَليها . وكُنْتُ قدْ أَحْضَرْتُ مَساميرَ قويةً ومِطرقةً لإحْكامِ الغِطاءِ عَلى الصُّندوقِ ؛ حتّى لا تُحاوِلَ الهربَ عندما تُفيقُ . وعندما حاولَ عبدُ اللهِ التَّساؤُلَ أوْ الاستِفْسارَ نَهرتُهُ فلَمْ يَملِكْ سِوى الطَّاعةِ العَمياءِ ، ونَفَّذَ الأمْرَ صاغِرًا . وتَمَّ نَقْلُ الصُّندوقِ إلى المَقبرةِ ، وظلَّ هُناكَ حتَّى هَذه اللَّحْظةِ . »

صَمتَتْ لِمُواصلةِ كلماتِها المتَقطِّعةِ بدقّاتِ قلبِها الواهنةِ في حينَ بَدا وَجْهُ هارونَ الرشيدِ كُتلةً جامِدةً مِنَ الغَضَبِ والذُّهولِ والحَيرةِ ، لكنَّهُ فَضَّلَ مُواصَلةَ الاسْتِماعِ حينَ أَضافَتْ :

« ومُنْذُ ذلكَ الحينِ جَرى لي ما لاحظْتَهُ أنْتَ بنفسِكَ . »

« قُلتُ لِنَفْسي إنَّ ما جَرى أمْرٌ جَلَلٌ ، لكنْ لمْ يَخْطِرْ ببالي مُطلَقًا أَنَّ زَوْجَتي قاتِلةٌ . لا أكادُ أُصدِّقُ ما تَسمعُهُ أُذُناي . »

« إنْ كُنْتَ لا تُصَدِّقُني ، أوْ تَظُنُّني مَجنونةً - فالدَّليلُ مَوْجودٌ . »

تَساءَلَ بصوتٍ أَجْوفَ مُختنِقٍ : « هلْ أتى اليومُ الذي أُقيمُ فيهِ الحدَّ عَلى زَوْجَتي ؟ »

أَجابَتْهُ : « حتَّى تُريحَني مِنَ الجحيمِ الذي أَصْطلي بنارِهِ ليْلَ نَهارَ . »

قالَ : « لا أكادُ أُصدِّقُ ما تَسْمعُهُ أُذُنايَ ؟ »

قالَتْ : « سَأُثْبِتُ لكَ صِدقَ كَلامي . سَتَرى الْمَساميرَ في غِطاءِ الصُّندوقِ بِنَفْسِكَ - غِطاءٍ لا يَستطيعُ ألْفُ رَجلٍ رَفْعَهُ مِنْ داخِلِهِ . »

اِنتفضَ الرَّشيدُ واقِفًا ثمَّ اندفعَ خارجَ الغرفةِ مُخترِقًا رَدَهاتِ القصرِ ومَمَرَّاتِهِ ، وخَلْفَهُ زَوجتُهُ تُهرولُ وهيَ

تُقاوِمُ ضَعْفَها وهُزالَها . وسَرعانَ ما كانَ طابورٌ مِن الحرسِ في أعْقابِهما ، في حينَ أسْرعَ رئيسُهمْ لإحضارِ عبدِ اللهِ المسئولِ عنِ الْمَقبرةِ ، فاقْتحمَ غُرفَتَهُ الصَّغيرةَ القابعةَ في رُكنِ الحديقةِ لِيوقِظَهُ ، فقفزَ مِنْ فِراشِهِ كَمَنَ يَرزحُ تحتَ وَطْأةِ كابوسٍ ثقيلٍ ، وهوَ لا يُصدِّقُ ما يَسْمَعُ أوْ يَرى . لكنَّهُ نَفَّذَ الأوامرَ وأحضرَ مفاتيحَ المقبرةِ ، وخرجَ لِيَرى أميرَ المؤمنينَ وزوجَتَهُ في ضوءِ القَمرِ الذي شَرعَ أخيرًا في إرْسالِ أشِعَّتِه الفضِّيَّةِ الحانِيَةِ .

كانَ عبدُ اللهِ عَلى وَشْكِ أَنْ يُقبِّلَ الأرْضَ بينَ يَدَي الخليفةِ ، لكنَّهُ أسْرعَ لِتنفيذِ الأَمْرِ بفَتْحِ الْمَقْبَرَةِ ، وقَدْ سَبقَهُ رئيسُ الحرسِ حامِلاً شُعلةً دَخلَ بها بِمجرَّدِ أَنْ أَعْلنَ صَريرُ البابِ فَتْحَهُ .

وفي لَحظاتٍ كانَ عبدُ اللهِ يُعالجُ مساميرَ الغِطاءِ الواحِدَ بَعْدَ الآخَرِ ، وهوَ يَرتعِشُ كَمَنْ أصابتْهُ حُمَّى أَوْ سُعارٌ ، في حينَ ثَبتَتْ نَظراتُ الخليفةِ وزوَجتِهِ عَلى كُلِّ حركةٍ مِنْ حَرَكاتِهِ .

قالَ لَهُ الخَليفَةُ : « لِمَ تَنْتَفِضُ هَكذا وأنتَ الذي كُنتَ تُغنِّي في مُنتهى النَّشوةِ منذُ عِدَّةِ أيّامٍ بجوارِ الْمَقبرةِ ؟ »

لمْ يَجِدْ عبدُ اللهِ ما يَرُدُّ بهِ سِوى أَنْ يرفعَ الغِطاءَ ويُلقِيَ بهِ جانِبًا ، وإذا بوميضِ النَّظراتِ قدِ امتزجَ بصدى الشَّهقاتِ عندما وَجدَ الحاضِرونَ الصُّندوقَ فارغًا ، وإنْ كانَتِ الملكةُ زُبيدةُ قدِ اسْتَنْشَقَتْ عِطرَ قوتِ القلوبِ الذي لا يَزالُ يشعُّ مِن البِطانَةِ الحريريَّةِ البَيْضاءِ . »

صاحَ الخَليفَةُ : « ما هَذا الذي أراهُ ، أوْ لا أراهُ ، يا عبدَ اللهِ ؟ أينَ الجُثَّةُ ؟ »

أجابَ عَبْدُ اللهِ : « لا أَعْرِفُ ، يا مَوْلايَ . أُقسِمُ لكَ ، يا مولايَ ، بِكُلِّ الأيْمانِ الْمُغلَّظةِ إنَّني لا أعْرِفُ مكانَ الْجُثَّةِ . »

« كاذِبٌ وحانِثٌ بالقسم أيضًا . كَما أنَّكَ داهِيةٌ ماكِرٌ استطاعَ أَنْ يُضَلِّلَ العُيونَ التي تُراقِبُهُ . »

« أُقسم . . . »

قاطَعهُ الخليفةُ بصوتٍ كَلَسْعَةِ السَّوْطِ : « اخْرَسْ ! سأُشْرِفُ عَلى تَعذيبِكَ بنفسي . . إمَّا أَنْ تَعترِفَ اعتِرافًا كامِلاً أوْ تُذْبَحَ ذَبْحَ الشّاةِ . »

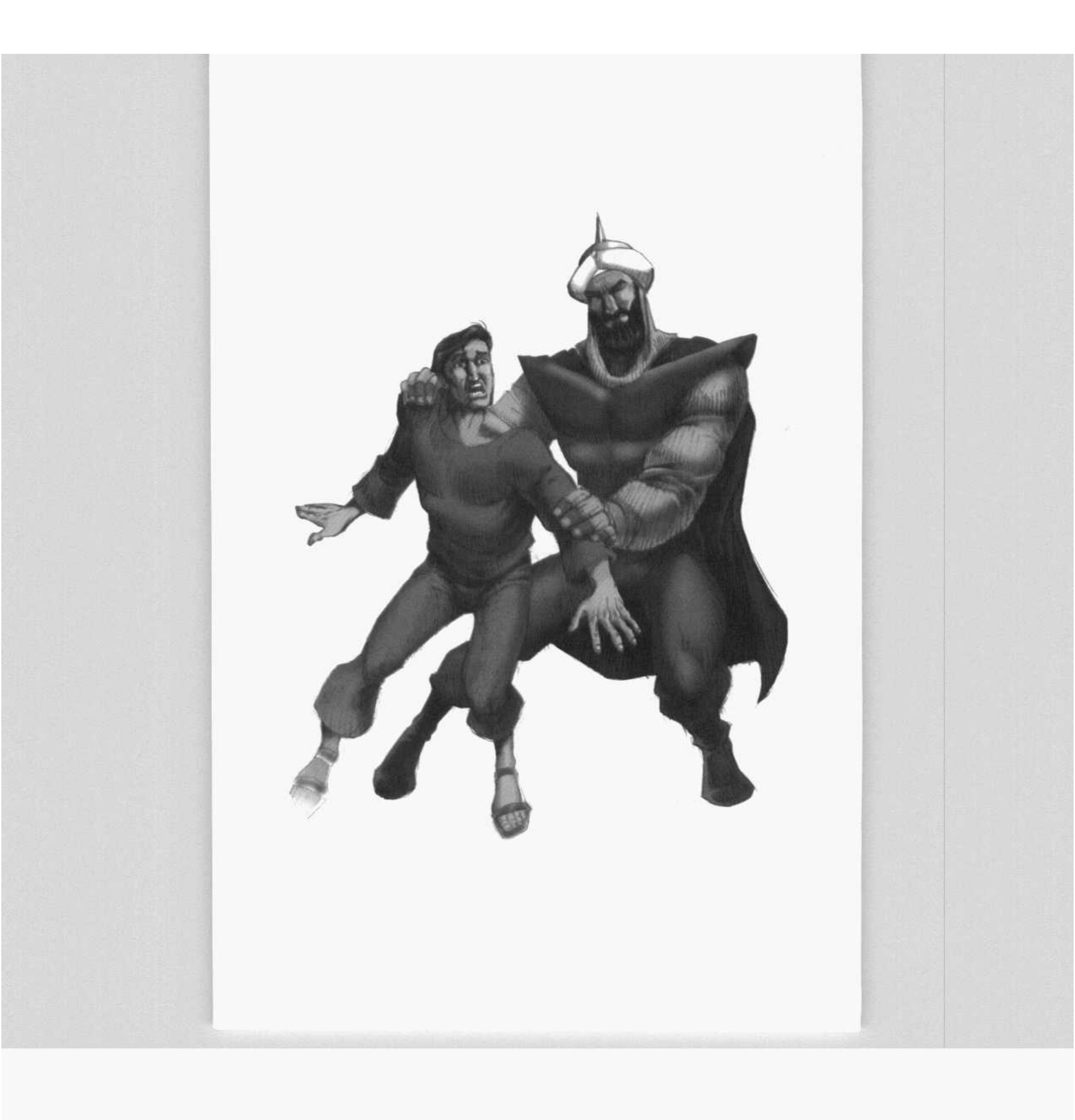
ثمَّ اسْتدارَ لِرئيسِ الحَرَسِ قائلاً : « اقْبِضْ عليهِ وألْقِ بهِ في غَياهِبِ السِّجنِ ، وسَآتي بِنَفْسي لأستخرِجَ بِأظافِري ما في قلبِه مِن أسْرارٍ سوداءَ . »

« سَمعًا وطاعةً ، يا مَوْلايَ . »

أَدَّى رَئيسُ الحَرَسِ التَّحيَّةَ ، وقَبضَ عَلى عبدِ اللهِ ، الذي كانَ يَنْتفضُ في يَدهِ الحديديَّةِ كدجاجةٍ جَرَتْ في عُنُقِها سِكّينُ الجزّارِ .

عادَ الخليفةُ إلى قصرهِ وخلفَهُ زوجتُهُ تَجرُّ أذيالَ الحَيرةِ والضَّياعِ ، وهيَ تُخاطِبُ نفسَها بصوتٍ مُرتعشٍ أجْوفَ : « كنتُ أتوقَّعُ رائحةَ العَفنِ تَنْبعثُ مِنَ الصُّندوقِ ، فلمْ أَشُمَّ سِوى عِطرِها السّاحِرِ النَّفاذِ . »

جَلسَ الرَّشيدُ عَلى حافَةِ فِراشِه مُديرًا ظهرَهُ لِزوجتِه



التي ظَلَّتْ واقِفةً جامِدَةً وهي تُرهِفُ السَّمْعَ لِزوجِها وهو يُحَدِّثُ نَفْسَهُ :

« هلْ يُمكنُ أَنْ يكونَ الأمرُ وَهْمًا في وَهْم ؟ وحتّى إذا كانَ مُتَدَلِّهًا في غَرامِها ، فهلْ هَذا مُبرِّرٌ لاخْتِطافِ جُثَّتِها وإخْفائِها ؟ وهلْ هناكَ مكانٌ أفضلُ وأعظمُ وأرْقى مِنْ هذِه الْمَقبرةِ المرمريَّةِ الفاخِرةِ وخاصَّةً أَنَّهُ قريبٌ مِنها طَوالَ اليومِ ، سواءٌ في غُرفتِه أوْ عَمَلِه بالحديقةِ ؟ وما السِّرُّ في غِنائِه الْمُنتشِي عندما فاجأْتُهُ في ذلكَ الصَّباح وهوَ مُنهمِكٌ في عَملِه ؟ ولماذا شَعَرَ بأَنَّ هناكَ مَنْ يَتتبَّعُهُ ويَقْتفي أَثَرَهُ فراوغَهُ كالثَّعلبِ وأَفْلتَ مِنْه ؟ هلْ يَملِكُ هَذا الولدُ البُستانيُّ السّاذَجُ كُلَّ هذا الدَّهاءِ والحيلةِ ؟»

اِنتفضَ الرَّشيدُ واقِفًا فارتعشَتْ زوجتُهُ وهوَ يَتساءَلُ : « هلْ يُمكِنُ أَنْ يكونَ قدْ فَتحَ الصُّندوقَ وأنقذَها وأخْفاها؟»

وَجدَتْ زُبيدةُ نفسَها وهيَ تتكلَّمُ في لهفةٍ دونَ أَنْ تَدْرِيَ : « إذا كانَ هذا صحيحًا - فسيكونُ أسعدَ خبرٍ

سَمِعْتُهُ في حَياتي . لكنَّ الجميعَ كانوا قدْ تأكَّدوا مِنْ موتِها . لَم يَشُكَّ أحدٌ في كَلامي ، فكلامُ الملوكِ لا يُرَدُّ . »

« لا يُرَدُّ لكنْ يُمكِنُ ألا يُصَدَّقَ ، خاصَّةً عِنْدَ أمثالِ هذا البُستانِيِّ الدّاهيةِ . السِّرُّ عنده بلا جدالٍ . . ولا بُدَّ أنَّهُ يُدرِكُ أنَّني أميرُ المُؤمنينَ الذي لا يَخْفى عنهُ سِرٌّ مِن أسْرارِ الدَّولةِ ، وعليهِ أن يتحمَّلَ عاقِبةَ إصرارِهِ عَلى إخفائهِ . »

اِسْتَرْخى هارونُ الرَّشيدُ بالقُربِ مِن حافَةِ الفِراشِ وقدْ شَعرَ ببردِ الرّاحةِ يَسْري في صَدْرِه الملتهِبِ ، عندما كرَّرَ في نَفْسِه احتمالَ إنقاذِ عبدِ الله لِقوتِ القُلوبِ وإخْفائِها بعيداً عنِ الأعْيُنِ . لَنْ يَهنأَ لهُ بالٌ حتّى يَكْشِفَ هذا السِّرَّ العَجيبَ .

-٩-

اِنهالَ السَّوْطُ عَلى صَدرِ عبدِ اللهِ العاري ، فأحدثَ بهِ خطّاً أحمرَ تَقاطَعَ معَ الخُطوطِ التي بَدأتْ تميلُ إلى اللَّوْنِ البنِّيِّ . ومع الآهاتِ التي مالَتْ إلى الوَهنِ والخُفوتِ ،

كانَ مَسْرورٌ بعضلاتِه المَفتولةِ مُمسِكًا بالسَّوطِ أمامَ عبدِ اللهِ المربوطِ بالأصْفادِ إلى عمودَيْنِ نُحاسيَّيْنِ مُتقابلَيْنِ كذبيحةٍ أمامَ جَزَّارِها ، الذي صاحَ بِصوتٍ رَعديٍّ رَدَّدَتْهُ جَنَباتُ القاعةِ الرَّهيبةِ :

« لَوْلا أنَّ مولايَ أميرَ المؤمنينَ لمْ يُصدِرْ أمرَهُ بعدُ بقتلِكَ - لَكنْتُ قدِ انتهَيْتُ مِنكَ مُنذُ أنْ عَلَّقْتُكَ عَلى العمودَيْنِ . لمْ أرَ مِثلَكَ في عِنادِكَ وإصْرارِكَ عَلى الصَّمْتِ . غَيرُكَ يَعترِفُ بكُلِّ شَيْءٍ مِن أوَّلِ ضَرْبَةٍ أوْ حتّى قبلَها ، أمَّا أنتَ فمجنونٌ لا تُريدُ أنْ تَعترِفَ بمكانِ امرأةٍ ماتَتْ . أ تَظُنُّ أنَّكَ بِهذا الجنونِ تُعلِنُ حُبَّكَ لَها عَلى رُؤوسِ الأشْهادِ ؟ إذا كُنتَ تُحِبُّها فِعلاً وتُصِرُّ عَلى إخلاصِكَ لَها حتّى بَعدَ وَفاتِها - فليسَ هناكَ إكرامٌ لَها أعظمُ مِن إعادَتِها إلى المقبرةِ الملكيَّةِ ، التي لمْ تكُنْ تَحلُمُ بأنْ تُدفَنَ فيها في يومٍ مِنَ الأيّامِ . »

سَقطَ رأسُ عبدِ اللهِ عَلى صدرِهِ ، فرفعَهُ مسرورٌ مِنْ شَعرِهِ وانهالَ عليهِ بالصَّفَعاتِ يَمْنةً ويَسْرةً ، لكنَّهُ بمُجرَّدِ أَنْ تَركَ شَعرهُ ، سَقطَ رأسُه مرةً أُخْرى عَلى صدرِهِ دونَ أَنْ يَنبسَ ببنتِ شَفةٍ . صَرَخَ مسرورٌ مُزمجِرًا :

« السَّيفُ هوَ الحلُّ ، ولكنْ ما باليدِ حيلةٌ . مَنْ مِنَّا الذي يُعذِّبُ الآخَرَ ؟ هلْ يُمكنُ أَنْ أظلَّ طَوالَ اللَّيلِ أَرْسُمُ عَلى صدرِكَ وظهرِكَ شبكةَ صيادٍ مُهترِئةً بالخُطوطِ الحمراءِ وأنتَ لا تَفتحُ فمَكَ إلا بالآهاتِ والشَّهقاتِ والصَّرخاتِ ؟ إنَّكَ ، يا غَبيُّ ، تُفَرِّطُ في حَياتِك بلا مُقابلٍ . هلْ هيَ رخيصةٌ عندكَ إلى هذا الحدِّ ؟ »

« إنَّهُ لَيْسَ غَبيّا عَلى الإطْلاقِ ، يا مسرورُ . إنَّه بَطلٌ مُصِرٌّ عَلى حِمايةِ حبيبتِهِ حَيَّةً أوْ مَيِّتةً . »

صَعِقَ مسرورٌ لِلصَّوتِ ، واستدارَ لِيَجدَ أميرَ المؤمنينَ خلْفَهُ وعَلى يَسارِه زوجَتُه التي أصبحَتْ عَجوزًا شمطاءَ . تَراجَعَ إلى الخلفِ وقدِ انْحَنى في خُشوعٍ .

تَقدَّمَ الخليفةُ مِن عبد اللهِ قائِلاً : « عبدُ اللهِ مُخلِصٌ لمولاهُ ، وسيَعترِفُ لهُ بكُلِّ شَيْءٍ . »

ثمَّ استدارَ لمسرورٍ آمِرًا إيَّاهُ : « فُكَّ قَيْدَهُ . أجْلِسْهُ عَلى كُرسِيٍّ مُرِيحٍ ، وأعْطِهِ ماءً لِيشربَ ، وامْسحْ جُروحَهُ بماءِ الوَرْدِ حتَّى يتَكلَّمَ . نَحْنُ نُريدُ أَنْ نَسْمَعَهُ لا أَنْ نُعذِّبَهُ . »

تَقدَّمَ مسرورٌ لِيَحُلَّ الأصْفادَ ، لكنَّ الخليفةَ أخْرجَ سَيْفَهُ الذَّهبيَّ مِنْ غِمدِه ولَكَزَ به عَضلاتِ الجلادِ المفتولةَ قائِلاً : « انْتظِرْ قليلاً . »

« السَّمْعَ والطَّاعَةَ ، يا مولايَ . »

« لَنْ ينالَ حُرِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يدُلَّنا عَلى مكانِ قُوتِ القلوبِ . رُبَّما كانَتِ الآنَ في خطرٍ ويُمكِنُنا إنقاذُها منهُ قَبْلَ فَواتِ الأوانِ . »

رَفَعَ عبدُ اللهِ رأسَهُ بجُهدٍ مُميتٍ ، وابتسمَ ابتسامةً شاحِبةً للخليفةِ ، وفتحَ شفتَيْهِ الجافَّتَيْنِ لِينْطِقَ ، لكنَّ الكَلِماتِ ضاعَتْ وعادَتْ إلى المجهولِ ، فصاحَ الخليفةُ

بهِ: « لمْ يَقفْ أميرُ المؤمنينَ هذهِ الوقْفةَ مِنْ قبلُ أمامَ أحدٍ، خاصةً إذا كانَ بُستانيًا مثْلَكَ . »

ثمَّ لَوَّحَ بسَيْفِهِ في الهواءِ ، فانعكسَ وَميضُهُ الذَّهَبيُّ عَلى وَجْهِ عبدِ اللهِ : « لَنْ أَخْرُجَ مِنْ هُنا قَبْلَ أَنْ أَحصُلَ عَلى شَيءٍ مِن اثنَيْن: إمّا سرِّكَ أوْ رأسكَ . وأَنْتَ تَعي جَيِّدًا ، يا عبدَ اللهِ، أَنَّ كَلامَ الْمُلوكِ لا يُرَدُّ . »

رفعَ عبدُ اللهِ رأسَهُ لِتَخرجَ كلماتُهُ واهِنةً ، مُتقطِّعةً ، مُتناثِرةً ، مَبحوحةً ، هامِسَةً : « أنا الذي اسْتَدْعَيْتُ قوتَ القُلوبِ وأَخَذْتُها بنَفْسي إلى الموتِ . »

انْفرجَتْ أساريرُ الخليفةِ الجامِدةُ وقالَ : « لا يموتُ الإنسانُ مرَّتينِ . وأَنْتَ لسْتَ السَّبَبَ في موتِها . كُنتَ تُنفِّذُ أوامِرَ الملكةِ ، وما عَلى الرَّسولِ إلا البَلاغُ . »

قالَ عَبْدُ اللهِ وقَدْ وَمَضَتْ نظراتُهُ الخابيةُ المنكسِرةُ :

« كانتْ ضحيَّةَ مؤامَرةٍ غادرةٍ وهيَ التي لمْ تَعرفْ في حياتِها سِوى الحُبِّ والحنانِ والعَطفِ وإسْعادِ الآخَرينَ . »

خرجَتْ كلماتُ الخليفةِ كضَرَباتِ سَوْطٍ لاهِبٍ وهو يَقولُ : « وكيفَ عَرفْتَ أنَّها كانتْ ضحيَّةَ مؤامرةٍ غادرةٍ ؟»

« لمْ تكنْ تَشكو مِنْ أيٍّ مرضٍ أو تعبٍ حتّى تَموتَ هَذِه الميتَةَ الغريبةَ المفاجئةَ . كانتْ في رَيْعانِ شبابها وعُنْفوانِ صِحَّتِها . كيفَ يَنْطفِئُ هَذا الوَهَجُ في لحظةٍ بِهَذا الشَّكْلِ الْمُريبِ ؟»

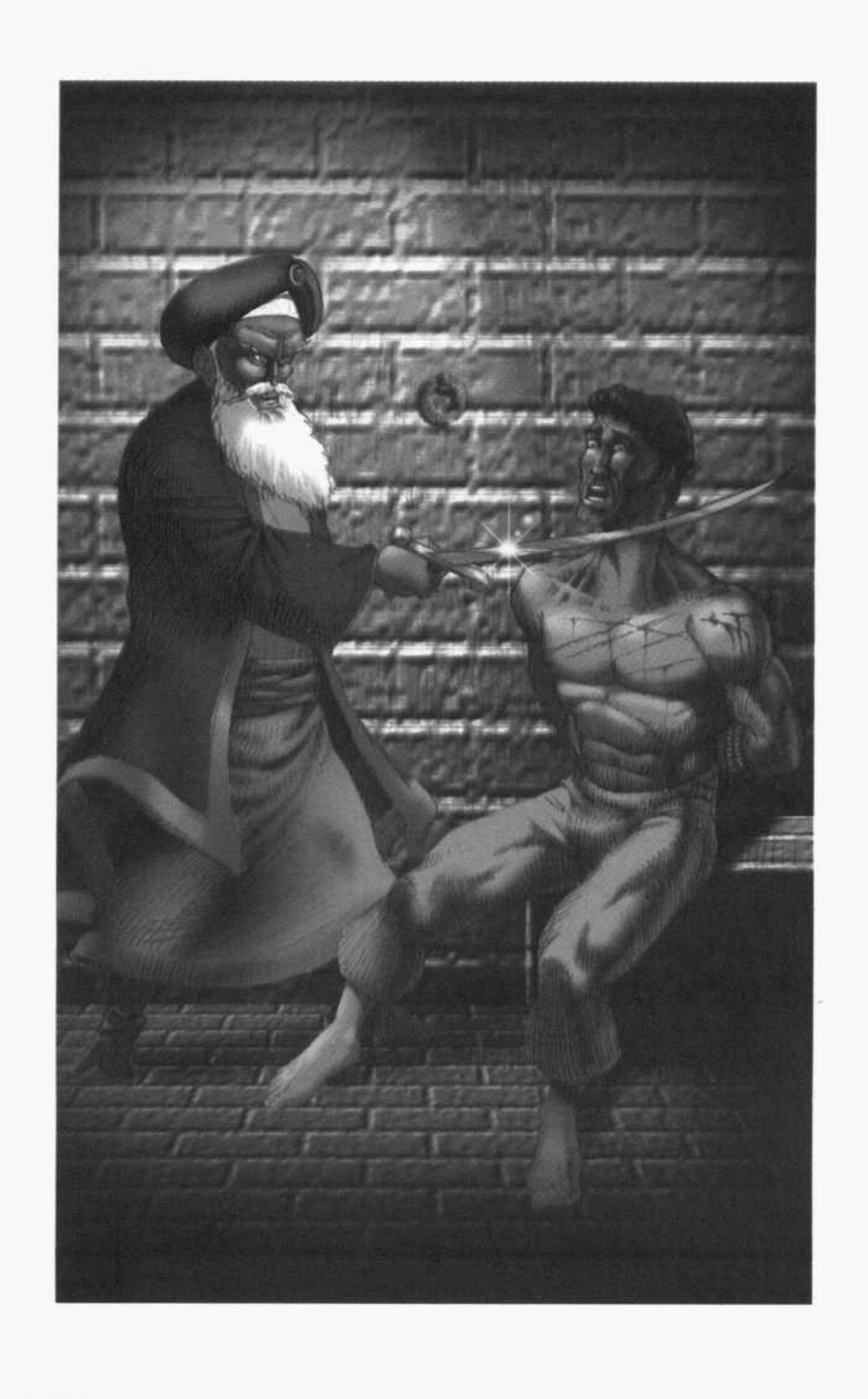
« يَبْدو أنَّ لديكَ دليلاً عَلى هَذِه المؤامرةِ الغادِرةِ الدَّنيئةِ ؟»

« مولايَ لا تَخْفى عليهِ خافِيةٌ . »

« لكنَّ مولاكَ لا يزالُ يَخفى عَليه مكانُ قوتِ القُلوبِ . » ثمَّ رَفعَ سَيفَهُ و وَضعَ نَصْلَهُ على عُنُقِ عبدِ اللهِ قائلاً :

« لَنْ أَسْتَمِرَّ في هَذِه المهزلةِ معَ بُستانِيٍّ مِثلِكَ . أمامَكَ لحظاتٌ مَعْدوداتٌ وسَيطيرُ رأسُكَ بِسَيفي مِن أجلِ سِرٍّ تافهٍ مِثْلِكَ لا تُريدُ البَوْحَ بِهِ . »

« وهَذا شَرَفٌ لمْ أكُنْ أَحْلُمُ بهِ . »



« شَرَفُ الاحْتِفاظِ بِهَذا السِّرِّ ؟ »

« شَرَفُ الموتِ بِسيْفِ مولايَ . »

-١٠-

ذُهِلَ حُرّاسُ البّوابَةِ الرَّئيسيَّةِ لِقَصْرِ الرَّشيدِ لِذلكَ الشَّبَحِ الذي أَلْقى عليهِمْ بِالسَّلام ، ومَرَقَ كالسَّهْمِ عَلى الْمَمَرِّ العَريضِ وَسَطَ أشْجارِ الحديقةِ . شَهَقَ أحدُهُمْ ولمْ يَدْرِ ما يَقولُ ، وسَقطَ ثانيهِمْ مِنْ هَوْلِ الْمُفاجأةِ وهوَ الذي كانَ يَقِفُ كالطَّودِ الشّامِخِ ، وحَمْلَقَ ثالِثُهمْ وهوَ لا يُصَدِّقُ ما يَرى ، في حينَ هُرِعَ رابِعُهُمْ خَلْفَ الشَّبَحِ لكِنَّهُ سَرْعانَ ما تَلاشى كأَنَّهُ لمْ يَكُنْ .

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم . بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم . »

لَهجَ لِسانُ مُصْطَفى البستانِيِّ العجوزِ بِكلماتِ البَسْمَلةِ ، وكادَ قَلْبُهُ أنْ يتوقَّفَ وهوَ يَستديرُ لِسَماعِ السُّؤالِ الْمَلْهوفِ :

« السَّلامُ عَليكُمْ . أينَ أَجِدُ عَبْدَ اللهِ ، يا عَمِّ مُصطفى ؟ »

خَرجَتْ كَلِماتُ مُصْطفى لاهِثةً ، مُتَقطِّعةً ، جَوْفاءَ :

« عَبـ . . عَبـ . . عَبْدَ . . عَبْدَ اللهِ ؟ مَنْ أَنْتِ ؟ هلْ أَنْتِ؟ هَلْ أَنْتِ . . . ؟ »

أَوْمَأتْ قوتُ القُلوبِ بِرأسِها واقترَبَتْ مِنهُ لكنَّهُ ابتعدَ عَنْها .

« نَعَمْ ، يا عمِّ مُصْطَفى . أَنا قوتُ القُلوبِ بِلَحْمِها وشَحْمِها . »

أَشاحَ بِذراعَيْهِ الْمَعْروقَتَيْنِ الْمُرْتَعِشَتَيْنَ كأَنَّهُ يَطْرُدُ نَحْلاً تَكأكأَ عَلَيْهِ مِنْ خَلِيَّةٍ قَريبةٍ مِن الخَلايا الْمُتَراصَّةِ في الحَديقَةِ :

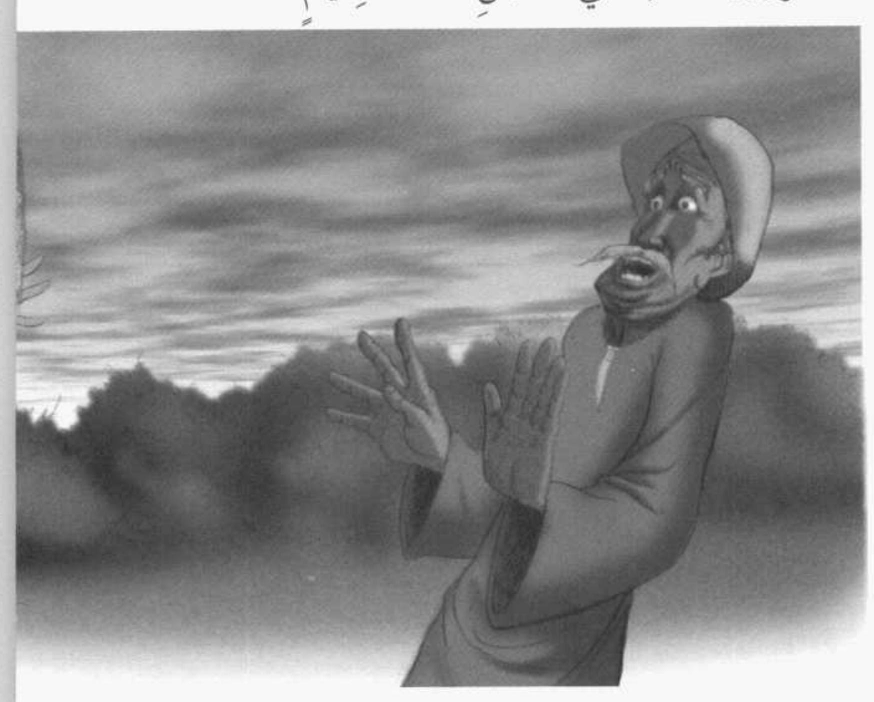
« اِنْصَرِفْ ! انْصَرِفْ ! أعوذُ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ . »

« أنا لَسْتُ عِفْريتًا ، يا عَمِّ مُصْطَفى . »

« اِنْصَرِفْ ! اِنْصَرِفْ ! يا نَهارُ لَمْ تُشْرِقْ عَليهِ شَمْسٌ ! »

كادَ الرَّجلُ أَنْ يَقَعَ في طينِ الحديقَةِ مِنْ عَلى ساقَيْهِ الْمُنتفِضتَيْنِ رُعْبًا ، فَخشِيَتْ قُوتُ القُلوبِ أَنْ تَقْتُلَهُ الصَّدْمَةُ، فَقالَتْ لَهُ : « لَوْ وَجَدْتُهُ في الحَديقةِ لابْتَعْدتُ عَنْكَ . لمْ أَتصوَّرْ أَنْ تَخافَ مِنِّي بِهَذا الشَّكْلِ ، ولَيْسَ لَديَّ وَقتٌ كَيْ أَشْرحَ كُلَّ شَيْءٍ . قُلْ لي أَيْنَ هوَ وسَأَخْتفي في لَمْحِ البَصَرِ . »

وكَأَنَّها أَلْقَتْ لِلْعَجوزِ بِحَبْلِ النَّجاةِ ، فَقالَ وهوَ يَتجنَّبُ النَّظَرَ إِلَيها : « إِنَّهُ في السِّجْنِ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ . »



شَهقَتْ وهيَ تَدُقُّ عَلى صَدرِها : « في السِّجْنِ ؟ عِنْدَما تَخلَّفَ هَذِه المرَّةَ عنْ زِيارَتي ، قَلْبي حَدَّثَني بِأشياءَ مُرعِبَةٍ ماذا فعلَ كَيْ يُلْقوا بِهِ في السِّجْنِ ؟»

صَرَخَ العَجوزُ بِصَوتٍ مُتهدِّجٍ : « اِنْصَرِفْ ! انْصَرِفْ ! أَعوذُ بِاللهِ منَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ . »

لَمْ تَشأْ أَنْ تُثْقِلَ عَليهِ أكْثَرَ مِنْ هَذا ، فَتوغَّلَتْ في الْمِنطقةِ الخَلْفيَّةِ عِنْدَ الأطْرافِ النّائِيَةِ لِلقَصْرِ ، حَيْثُ



تَراصَّتْ ثُكُناتُ حَرَسِ أميرِ الْمُؤمنينَ . وكانَ هُناكَ بَعْضُ الجُنودِ الْمُنْهَمِكينَ في تَنْظيفِ خُيولِهِمْ بالإسْفَنْجِ الْمُبَلَّلِ بالماءِ الْمُعَطَّرِ ، والبَعضُ الآخَرُ في كَنْسِ الثُّكُناتِ ، فلمْ يَلْتَفِتوا إلَيْها وهيَ مُنْطَلِقةٌ إلى السِّجْنِ الذي سَمِعَتْ عنْ مَكانِه مِنْ قَبْلُ ، فسارَتْ عَلى هَدْيِ فِكْرَتِها الغامِضَةِ ، لِتَجِدَ نَفْسَها أمامَ سُورٍ حَجَرِيٍّ سَميكٍ، وبَوّابةٍ مَفْتوحَةٍ مِن القُضْبانِ الحديديَّةِ الغَليظَةِ ، وأمامَها تراصَّتِ الخيُولُ المَلكيَّةُ بسُروجِها المطَعَّمةِ بالفِضَّةِ، والعَربةُ المَلكِيَّةُ الْمُذَهَّبَةُ التي اصْطَفَّ الحُرّاسُ حَوْلَها .

تَعالَتِ الشَّهقاتُ والصَّيْحاتُ بينَ أفرادِ الحَرَسِ ، وقوتُ القُلوبِ تَخترِقُ صُفوفَهُمْ صَوْبَ البَوّابةِ الحَديديَّةِ . جَحَظتِ العُيونُ ، وشَلَّتِ الأَيْدي فلمْ تَمْتدَّ لمَنْعِها مِن الدُّخولِ . ويَبْدو أنَّ مُرورَها كالطَّيْفِ بَيْنهمْ أكَّدَ لَهُمْ أنَّهُ عِفريتُها الذي ظَهَرَ في عِزِّ النَّهارِ والشَّمْسُ تُغرِقُ الأرْضَ بنورِها الذَّهبيِّ الْمُبهِرِ ، مِمَّا ضاعَفَ مِنْ ذُهولِهِمْ الذي أَوْشَكَ أَنْ يَتحوَّلَ إلى غَيْبوبةٍ ؛ فالجميعُ يَعْلمونَ أنَّ

ظُهورَ العَفاريتِ مُرتَهنٌ باللَّيْلِ وظَلامِهِ .

وَجَدتْ قوتُ القُلوبِ نفسَها وهيَ تَقِفُ وراءَ الخليفةِ الذي يُلَوِّحُ بسَيْفهِ في الهَواءِ صائِحًا : « لَنْ أَحْرِمَكَ مِن تَحقيقِ رَغبتِكَ الأكيدَةِ في الْمَوْتِ . »

لكِنْ دونَ تفكيرٍ وَجَدَ الخليفَةُ نَفْسَهُ وهوَ يَضعُ سَيْفَهُ في غِمْدِه عندما رَفَعَ عبدُ اللهِ رأسَهُ صائِحًا بدَورِهِ : « ما الذي أتى بكِ إلى هُنا ؟ أَتيْتِ كَيْ تُضَيِّعي كُلَّ عَذابي هَدَرًا ؟ سَعيْتِ لحَتْفِكِ بظِلْفِكِ . »

اِسْتدارَ الخَليفةُ لِيَجدَ قوتَ القُلوبِ بلحْمِها وشَحْمِها واقِفةً خَلفَهُ في مَلابسَ ريفيَّةٍ بَسيطةٍ . تَراجعَ خُطوةً في ذُهولٍ إلى الخلفِ ، لكنَّهُ سَرْعانَ ما تَماسكَ أمامَ عُيونِ حَرسِهِ التي لا تَعي ما تَراهُ ، خاصَّةً مَسْرورًا الذي اهْتَزَّ ، وهوَ الذي قُدَّ مِن صَخْرٍ ، ولمْ يَتَمالَكْ سِوى أَنْ يَصيحَ : « ما هَذا الذي يَجْري أمامَ أَعيُنِنا ؟ »

أمَّا الْمَلِكةُ زُبَيْدةُ فقدِ تَمَلَّكَتْها صَرَخاتٌ مُتَوالِيَةٌ ،

فغابَتْ عنِ الوَعْي لكنَّها قَبْلَ أَنْ تَسقُطَ عَلى الأرْضِ ، كانَتِ الجاريةُ مُرْجانةُ قَدْ تَلقَّفَتْها وأَجْلَسَتْها عَلى مَقْعدٍ خَلْفَها ، وشَرَعَتْ في مَسْحِ وَجْهِها بماءِ الوردِ حتّى تُفيقَ ، في حينَ الْتفتَ الخليفةُ إلى مَسْرورٍ قائلاً : « فُكَّ قَيْدَهُ . »

انْحنَتْ قوتُ القُلوبِ لِتُقبِّلَ الأرضَ بينَ يَدَي الخَليفةِ الذي أقامَها قائِلاً بِابْتِسامةٍ أَبويَّةٍ حانِيَةٍ : « حَمْدًا للهِ عَلى سَلامَتِكِ !»

كانَتْ عَلى وَشْكِ أَنْ تَفْتحَ فَمَها ، لكنَّهُ وَضَعَ سَبَّابتَهُ عَلى شَفَتَيْها قائِلاً : « لا تَقولي شَيئًا . أَعْرِفُ مُقدَّمًا كُلَّ ما سَتَنْطِقينَ بهِ . اِذْهَبي وساعِدي مَسْرورًا في فَكِّ قَيدِهِ . »

هُرِعَتْ إلى مَسرورٍ لِتُمْسِكَ بعبدِ اللهِ قَبْلَ أَنْ يَتَهاوى عَلى الأرْضِ ، وقد احْتَضَنَتْهُ لِتُجلِسَهُ عَلى أريكَةٍ خَشَبيَّةٍ ، والدُّموعُ طوفانٌ مِنْ عَيْنَيْها الواسِعَتَيْنِ الجَميلَتَيْنِ ، وهيَ تَمْسَحُ جُروحَهُ بأنامِلِها الرَّقيقةِ ، فأشاحَ الخليفةُ بِوجْهِهِ بَعيدًا ، وكأنَّهُ يَأبى عَلى نَفسِهِ أنْ يرى الحاضِرونَ بَوادِرَ



الدُّموعِ في نَظراتِه التي فَقدَتْ حَسْمَها وصَرامتَها تمامًا .

أفاقَتِ الْمَلِكةُ زُبيدةُ بينَ يَدَيْ مُرجانَة وإنْ كانَ الوَهَنُ قَدْ أخذَ مِنْها كُلَّ مَأْخَذٍ . بَدأتْ نَظراتُها في استْيعابِ ما يَجْري ، وتَذكَّرتْ تَخْمينات زَوْجِها عِنْدَ فَتْحِ الصُّندوقِ الشّاغِرِ ، فَإذا بِها تَقولُ دونَ تفكيرٍ بِهَمَساتٍ مُتَردِّدَةٍ وإنْ سَمِعَها الجَميعُ :

« حَمدًا للهِ وشُكرًا ! حَمدًا للهِ وشُكرًا !»

ثمَّ رَكعَتْ عَلى الأرضِ وسَجَدَتْ لِدَرجةِ أنَّ مُرجانةَ ظنَّتْ أنَّها فَقدتِ الوَعْيَ مرَّةً أُخرى . ولمْ تَنْهَضْ إلا عِندَما ذَهبَ إلَيها زوجُها وأقامَها ، فنهضَتْ والدُّموعُ تَغْسِلُ وجْهَها وتَنهمِرُ عَلى صَدرِها ، مما ضاعَفَ مِنْ ذُهولِ الحاضِرينَ ، وصوتُ الخليفةِ يُدَوِّي :

« ما أمْتَعَ وما أَرْوعَ أَنْ يلْمِسَ الإنسانُ بنفسِه العدالةَ الإلَهيَّةَ وهيَ تَأخذُ مَجْراها أمامَ عَيْنيهِ ! كَما أنَّني لا بُدَّ أَنْ أُعبِّرَ عنِ احْترامي وإعْجابي بِقوتِ القُلوبِ ، الجاريةِ التي

أثْبَتَتْ أنَّها أعظَمُ مِنْ أَحرارٍ كَثيرينَ . . وكَذلكَ عبدِ اللهِ ، البُستانِيِّ البسيطِ الذي تًعامَلَ معَ الموضوعِ بِمُنْتَهى الإخْلاصِ والحُبِّ والنَّقاءِ والدَّهاءِ والإصْرارِ والثَّباتِ عَلى الْمَبْدإِ ، بِأُسلوبٍ يُثيرُ الإعْجابَ . إنَّ جَوْهَرَ الإنْسانِ الحَقيقيَّ لا يَتَأَلَّقُ أوْ يَتجلَّى إلا عِنْدَما يَنْصَهِرُ في بُوتَقةِ المِحْنَةِ . »

وبمُجرَّدِ أَنْ سَكَتَ الخليفةُ عنِ الكلامِ ، انْطَلَقتِ الْمَلِكةُ بكُلِّ وَهَنِها وضَعْفِها إلى قُوتِ القلوبِ وعبدِ اللهِ لِتَحْتضِنَهُما ، وتَنْخَرِطَ في بُكاءٍ مَريرٍ ، لِيَتضاعَفَ ذُهولُ الحاضِرينَ ، ويَتبادَلَ عبدُ اللهِ وقوتُ القُلوبِ نَظراتٍ حَرِجَةً حائرةً ، خاصَّةً عِنْدَما انْهَمرَتْ دُموعُ الْمَلِكةِ عَلى كَتِفِ قوتِ القُلوبِ .

خَشِيَ الخليفةُ مِنْ أَنْ يَتطوَّرَ الْمَوقِفُ ، ويَتجاوزَ الحُدودَ التي تَصَوَّرَها لَهُ مِن قَبْلُ ، فواجَهَ الجميعَ وأَعْلَنَ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ ولِسانٍ فَصيحٍ ، اشتُهِرَ بهما في أحاديثِهِ

وخُطَبِهِ الْمَلكيَّةِ :

« والآنَ أُعلِنُ عِتْقَ الجاريَةِ قُوتِ القُلوبِ ، وإنْ لَمْ أكُنْ قدْ عامَلْتُها في يوم مِن الأيّام كجاريةٍ ؛ فهيَ عازفةٌ ومُطربةٌ عظيمةٌ سَحَرتِ الآذانَ وخَلَبتِ الألْبابَ وسَرَتْ في القُلوبِ بِالحُبِّ والسَّعادةِ والنَّشْوةِ ، أيْ أَنَّها اسْمٌ عَلى مُسَمى .

« ولِذلكَ أُعْلِنُ تَعيينَها العازفةَ الأولى والْمُطربَةَ الرَّسْميَّةَ لأميرِ المؤمنينَ الخليفةِ هارونَ الرَّشيدِ ، والْمُشرفةَ والرّاعيةَ لِكُلِّ الحفلاتِ التي تُقامُ في القَصْرِ ، أو خارجَهُ حَيْثُما نَذْهَبْ . »

ثمَّ الْتَفتَ الرَّشيدُ إلى عبدِ اللهِ ، وابْتِسامةٌ عَريضةٌ حانيةٌ تَفْترِشُ وَجْهَهُ الذي أَشْرقَ أخيرًا قائلاً :

« أمَّا هَذا الشّابُّ البُسْتانيُّ البَسيطُ الْمُتواضِعُ عبدُ اللهِ ، فَنَظَرًا لِكُلِّ الصِّفاتِ الحميدةِ والقُدراتِ الفائقةِ التي أظْهرَها في هَذِه المِحْنةِ ، وكانَ رَمزًا لِلْوفاءِ والإخْلاصِ والفِداءِ

والذَّكاءِ والدَّهاءِ والإرادةِ الحديديَّةِ ، والإصْرارِ الذي لا يَعرفُ التَّراجُعَ ، والصَّلابةِ التي لا تَلينُ ، والتَّحرُّكِ الحاسِمِ والسَّريعِ في المواقِفِ الحَرِجةِ والمفاجئةِ - فإنَّني أُعَيِّنُهُ نائِبًا لِرئيسِ حَرَسِنا الخاصِّ ، حتّى يَتلقَّى عَلى يَديْهِ أسرارَ المِهْنةِ وأصولَ الحِرْفةِ ، ثمَّ يَخْلُفُهُ عِنْدَما يَتقاعَدُ . »

انْهالَتِ الْمَلِكةُ بالقُبُلاتِ عَلى رَأسِ قوتِ القُلوبِ وخَدِّها ، وأَشْرَقَ وَجْهُها أخيرًا ، في حينِ كانَتِ الجاريةُ مُرْجانةُ عَلى وَشْكِ الموتِ حَسَدًا وحِقْدًا وكَمَدًا ، لكنَّ الأنظارَ كانَتْ كُلُّها مُسَلَّطَةً بِوميضِها اللامِعِ عَلى قوتِ القُلوبِ وعبدِ اللهِ .

غَلَّفَتِ السَّعادةُ كَلِماتِ الخليفَةِ وهوَ يُعلِنُ :

« كَما أُعلِنُ إقامةَ عُرسٍ لِقوتِ القُلوبِ وعبدِ اللهِ ، يَحْضُرُهُ الوُلاةُ والحُكَّامُ والقادَةُ وكِبارُ القَوْمِ ، وتُقامُ الأفْراحُ واللَّيالي المِلاحُ أرْبعينَ لَيلةً إلا لَيلةً . »

ثُمَّ ضَحِكَ مُقهقِهًا وهوَ يُضيفُ :

« أنا شَخصيّا لا أَعْرِفُ السِّرَّ في حَذْفِ هَذِه الليلةِ مِن الأرْبَعينَ ليلةً . . رُبَّما كانَ عبدُ اللهِ يَعرِفُ هَذا السِّرَّ أيْضًا . . لكنْ هَكذا جَرتِ العادَةُ . . ورُبَّما اتَّسَعَ وَقْتُنا فيما بَعْدُ لِبَحْثِ هَذا الأمْرِ . »

تَقدَّمَ الخَليفةُ الحاضِرينَ صَوْبَ البَوّابةِ ذاتِ القُضبانِ الحديديَّةِ الغَليظةِ قائِلاً ونَظراتُهُ عَلى قوتِ القُلوبِ وعبدِ اللهِ :

« والآنَ هَيّا بنا إلى القَصْرِ لِنَسْتريحَ مِنْ عَناءِ الأيّامِ الماضِيَةِ ؛ راجيا مِنَ الْمَوْلى ، عَزَّ و جَلَّ ، أَنْ يَجعلَ أيامَكُما كُلَّها سَعادةً وهَناءَةً وعِزَّةً ورَفاهِيَةً ، في ظِلِّ الخِلافةِ العَبّاسيَّةِ العَتيدةِ إلى ما شاءَ اللهُ . »

خَرجَ الخليفةُ وخَلْفَهُ الْمَلِكةُ التي لا تَزالُ تَحتضِنُ قوتَ القُلوبِ بَيُمْناها وعبدَ اللهِ بيُسْراها ، إلى أَنْ بَلغَ العَربةَ الذَّهبيَّةَ ذاتَ الخيولِ الْمُطهَّمةِ .

صَعِدَ الخَليفةُ في حينَ تَردَّدَتِ الْمَلِكةُ لِلَحَظاتٍ فَصاحَ

بِها :

« ماذا تَنتظِرينَ ؟ هَيّا اصْعَدي . »

صَعِدَتِ الْمَلِكةُ في خَجَلٍ وتَردُّدٍ ، فأجْلَسَها إلى جِوارِه في حينَ قالَ لِقوتِ القُلوب وعبدِ اللهِ في تَساؤُلٍ باسِمٍ :

« وأنْتُما ، ماذا تَنْتظِرانِ ؟»

كانا عَلى وَشْكِ الابْتِعادِ عنِ العَربةِ ، لكنَّ مِزاجَهُ الْمُعْتَدِلَ جعلَهُ يَصيحُ بهما مُقهْقِهًا :

« قُلْتُ لَكُما هَذا الكلامَ لِترْكَبا مَعنا . . لا لِتَبْتَعِدا . »

« نَفِّذا أوامِرَ مَوْلانا فَوْرًا . »

ثمَّ دَفعَ عبدَ اللهِ بيَدهِ ، فصَعِدَ عَلى دَرَجةِ السُّلَّم وهوَ يَكادُ يَتعثَّرُ ويَسْقُطُ عَلى وَجْهه ، في حينَ مالَتِ الملكةُ ومَدَّتْ يَدَها لِقوتِ القُلوبِ وجَذَبَتْها لِتَستوِيَ جالِسةً أمامَها .

فَرْقَعَ الحُوذِيُّ بِسَوطِهِ الطَّويلِ في الهَواءِ ، فَتحرَّكتِ الخُيولُ في حَركةٍ راقِصةٍ جَميلةٍ ، وتَهادَتِ العربةُ عَلى الْمَمَرِّ المؤَدِّي إلى بابِ القصرِ بينَ صُفوفِ الأَشْجارِ الباسِقةِ ، وأعوادِ الزُّهورِ التي تَتراقَصُ معَ نَسَماتِ الهَواءِ بأَلْوانِها الحَمراءِ والبَيضاءِ والصَّفْراءِ ، وشُجَيراتِ الرَّياحينِ الْمُشعَّةِ بأريجِها الذي يُداعِبُ الأُنوفَ .

لمْ تَرْفَعِ المَلِكةُ عَيْنَيْها عَنْ قوتِ القُلوبِ ، وانْطَلقتْ مِنها أخيرًا الكلماتُ التي ظَلَّتْ حَبيسَةً خَلْفَ نَظَراتِها :

« هُناكَ اعتِرافٌ ، يا قوتَ القُلوبِ ، لا بُدَّ لي مِنْ أَنْ أُدلِيَ بهِ إلَيكِ . . فَقَدْ أَرَدْتُ بكِ شَرًّا فأرادَ اللهُ بكِ خَيرًا . وأنا راضِيةٌ كُلَّ الرِّضا عَلى حُكْمِكِ عَلى ما سوفَ أَقولُهُ الآنَ . »

تَلَعْثَمتْ قوتُ القُلوبِ وتَقطَّعَتْ نَبراتُها الْمُتفجِّرةُ بِالخَجلِ :

« أَسْتغفِرُ اللهَ ، يا مَوْلاتي ! أَسْتَغْفِرُ اللهَ ! »

« أنا أَوْلى بهَذا الاسْتِغْفار ، يا قوتُ . وسَأَظَلُّ طولَ عُمري أَخِرُّ ساجِدَةً حَمْدًا وشُكرًا لِلْمَولى القَدير ، الذي لمْ أَتَصَوَّرْ أبدًا أَنْ يُجيبَ لي طَلَبي الْمُستَحيلَ بِعَوْدتِكِ إلى الحياةِ .

« لقدْ تَلَقَّيْتُ درسَ العُمْرِ عَلى يَدَيْكِ ، ولَوْلا عبدُ اللهِ الذي أرسَلَهُ اللهُ لإنْقاذِكِ - لأصبَحْتُ قاتِلةً وعَليَّ أَنْ أتَلقَّى عَذابَ الدُّنْيا والآخِرَةِ . ويَبْدو أنَّني لمْ أكُنْ شِرِّيرةً إلى الحَدِّ الذي أُصْبِحُ عِندَه هَكَذا . لمْ أُدْرِكْ أنَّ عَذابَ الضَّميرِ أقْسى مِن أيِّ عَذابٍ آخَرَ عَلى وَجْهِ هَذِه الأرْضِ .

« لَمْ أَجِدْ في النِّهاية طَريقةً لِلْهربِ مِنهُ سِوى الإضْرابِ عَنِ الطَّعامِ حتَّى الْمَوْتِ ، رُبَّما أَجِدُ فيهِ الرّاحةَ التي افْتَقَدْتُها في الصَّحْوِ والْمَنام ، لكنَّهُ كانَ يُلِحُّ عَليَّ بِهَمَساتِه الْمُرعِبَةِ بِأَنَّ عَذابَ الآخِرَةِ هوَ الجَحيمُ الأبدِيُّ نَفْسُهُ .

« عِشْتُ حَياةَ النَّدمِ والدُّموعِ التي لا يَنْضُبُ لَها مَعينٌ ،

لَيْلَ نَهارَ ، لعلَّ اللهَ يَغْفِرُ لي ما تَقدَّمَ وما تَأَخَّرَ مِنْ ذُنوبي . وما زِلتُ في انْتِظارِ هَذا الغُفرانِ لَعَلَّهُ يَنْزِلُ عَلى قَلْبي بَرْدًا وسَلامًا . »

« إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جميعًا ، يا زُبَيدةُ . الْمُهِمُّ ألا يَعودَ الإنْسانُ إلى ارتِكابِها مَرَّةً أُخرى . »

جَلْجَلَ صَوتُ أميرِ الْمُؤمِنينَ ، والعَربةُ تَنْعَرِجُ صَوْبَ بابِ القَصْرِ ، لكنَّ الملِكةَ واصَلَتْ إلْحاحَها :

« أُريدُ أَنْ أسمعَها بِأُذُنَيَّ مِنْ قُوتِ القُلوبِ . لَنْ يَستَريحَ ضَميري إلا إذا قالَتْها بلسانِها . »

تَردَّدَتْ قوتُ القُلوبِ لِلَحظاتٍ ثُمَّ هَمسَتْ في خَجَلٍ :

« إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا ، يا مَوْلاتي . »

اِسْتَرْخَتِ الْمَلِكةُ في مَقْعَدِها :

« والآنَ ، لَمْ أَعُدْ أخافُ اللَّحْظَةَ التي أُواجِهُ فيها وَجْهَ رَبِّي . أخيرًا انْطفَأَ الحريقُ وحَلَّ البَردُ والسَّلامُ . »

هَبَطوا مِنَ العَربةِ ، وصَعِدوا عَلى الدَّرَجاتِ الْمَرْمريَّةِ ، وكلماتُ جَدَّةِ عبدِ اللهِ تَرِنُّ في أُذُنَيْهِ وهوَ يُحاوِلُ اللَّحاقَ بِالخليفةِ والْمَلِكةِ ، مُتَّكِئًا على ذِراعِ قوتِ القُلوبِ :

« في النِّهايةِ لا يَصِحُّ إلا الصَّحيحُ . »

